
(نظرات في السيرة العاطرة)



اسم الكتاب: نظرات في السيرة العاطرة

التأليف: د. أنس مراد الرهوان

موضوع الكتاب: مجموعة مقالات

عدد الصفحات: 96 صفحة

عدد الملازم: 6 ملازم

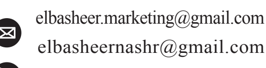
مقاس الكتاب: 14x20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2017 / 2797

الترقيم الدولي: 0 - 660 - 278 - 977 - 978






elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714



نظرات في السيرة العاطرة

د. أنس مراد الرهوان

تقديـم

أ.د. خالد فهمي



إهـداء

إلى والديَّ

وإلى كل روحٍ ظمأى، لترتويَ من معينِ الجمال الصافي!

نوافج المسك!
بين يدي المقالات

أ. د. خالد فهمي
كلية الآداب، جامعة المنوفية

«اللهم اهدني وارزقني وعافني وارحمني». [من حديث أبي مالك الأشجعي، كتاب الدعوات الكبير، للبيهقي، باب الحث على الدعاء بالعافية (ص ١٨٤/ ٢٥٩ تحقيق بدر عبد الله بدر، مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت سنة ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٩م)]

وبعدُ..

فهذا سِفْر لطيف، يمنح الأملَ، ويفتح العقل والوجدان على شيء وسيعٍ من رحمة الله سبحانه بخلْقه وسط غاشية توشك أن تظلم معها الدنيا في حالكةٍ من الحقب.

فأما أنه يمنح الأمل، فلأنه صادرٌ عن شبا قلمِ شابٍّ، وأما أنه يفتح العقل والوجدان، فلرشدة تسري بين سطوره وتنساب من بين نصوصه المقتبسة الموظفة أحسن توظيف.

وإني متوقف أمام هذه المقالات لبعض من الوقت لأدلَّ على ما حصَّلتُ من متعة وفائدة.

١- الكتاب: مادته، وانتماءاته المعرفية.

١- ١- مادة الكتاب.

يضم هذا الكتاب إحدى وعشرين مقالةً هي كما يلي:

١- محمد ﷺ : أمة في رجل.

٢- حكاية قلب.

٣- كتاب يمضي ووفد يقدم.

٤- أنت بمن تصاحب

٥- حين يكون الصدق رجلا.

٦- نعم الرجل عبدالله

٧- الصديقة والبلاغة الفاخرة

٨- العقل.. والخلوات.

٩- أشجان الصالحين وأشواقهم.

١٠- ذهب أهل الدثور بالأجور

١١- مسرح الذكريات.

١٢- على بصيرة.

١٣- بين بدر وأحد

١٤- سؤال.. وجواب!

١٥- مشاعر صادقة

١٦- ميزان: خاطرة في تعامل الإسلام مع نفسيات الصحابة.

١٧- حكاية الهجرة.

١٨- هدايات آية.

١٩- في ذكرى الفتح المجيد: المسيرة والحصاد.

٢٠- قصة الحج.

٢١- عن القدوات.

٢-١- الانتماءات المعرفية للمقالات.

إن تحليل هذه المقالات انطلاقا من خطاب العنوانات ـ على الأقل ـ يكشف عن حزمة من الانتماءات المعرفية المتشابكة التي تدل على نمط من ثقافة كاتبها، وهويته الفكرية.

وفيما يلي بيان بأظهر هذه الانتماءات الحاكمة في هذه المقالات:

أولا: حقل تدبر الكتاب العزيز.

في بعض هذه المقالات نوعُ وقفاتٍ تكشف عن وعيٍ بضرورة تدبُّرِ المسلم المعاصر للكتاب العزيز (كما في المقالة «١٢»)، وهو وعيٌ مرجعُه إلى الاستجابة لأوامر الكتاب العزيز نفسِهِ الذي يحرض الإنسانَ على هذا التدبر، من طرقٍ متنوعة، كاشفا عن جدواه وآثاره

ثانيًا: حقل السيرة النبوية.

وهذا الحقل المعرفي هو أكثر الحقول ظهورا وتجلِّيًا في هذا السِّفْر اللطيف، يشهد على ذلك ما نراه باديا في عنوان المقالات (١، ١١، ١٣، ١٥)، وغيرها.

واللواذ بالسيرة النبوية منهجية بديعة للاستلهام المعاصر في مواجهة المشكلات التي لم يكن للعقل العربي المسلمِ سابقةُ اشتباكٍ معها؛ ذلك أن السيرة النبوية ليست نمطًا من التاريخ الساكن، بل هي تاريخٌ حيٌّ يلزم استصحابُه على الزمان؛ لأنه في بعض الرأي «قرآنٌ يمشي على الأرض»، ونجاة في مراحل الانتقال العصيبة المأزومة.

ثالثا: حقل التزكية (التربية).

وفحصُ كثير من المقالات يكشف عن روحٍ تسري فيها جميعا، تستهدفُ تزكية النفس المسلمة المعاصرة بعد زمانٍ طويلٍ ما يزال متصلا، وحركات كثيرة ما تزالُ قائمة- من تدويخها وتشويهها، وهذه التزكيةُ تستعلن وتستقلُّ بها مقالاتٌ خاصةٌ (على ما نرى في المقالة ١٢).

هذه أظهر ثلاثة انتماءات معرفية حاكمة لجملة مقالات هذا الكتاب.

غير أن شيئا آخر يبدو واضحا في كثير من هذه المقالات يتعلق بسيرة المؤلف الذاتية؛ إن القارئ لَيلْمَح نوعَ نزوعٍ وميلٍ نحو بثِّ ما يتردد في ضميره، وأشواقه، وأخلاقه ولا سيما نحو كثيرٍ من البقاع المقدسة في المدينة المنورة مثوى رسولِ الله ﷺ، ومكة المكرمة مهبط الوحي الكريم.

١. المقالات: خطاب المحتوى.

مرَّ أن ثلاثةَ الانتماءات المعرفية الظاهرة في هذه المقالات بشهادة خطاب العَتَبات المتمثل في عنواناتها يكشف تعلقا بتدبر الكتاب العزيز، وتحليل السيرة النبوية واستلهامها واستصحابها؛ بداعية خدمة مجال تزكية الأنفس.

والحقيقة أن هناك موضوعًا أثيرا يلحُّ في الظهور من جنبات المقالات جميعا، مستعلنًا حينا ومستخفيًا أخرى.

وهذا الموضوعُ كان في طلب خلوصِ القلب، وصفائه، ورقَّته، وإيمانه، وهو ما يواجهك في التقاط المؤلف لكل ما يقود إلى ذلك، من مثل قوله في (هدايات آية): «وهو أيضا إمام في رقة القلب، ولين الجانب»، وهذه العبارة في سياق ما منَّ اللهُ تعالى به على خليله إبراهيمَ كاشفٌ لما أقرِّرُه.

إن هذه المقالاتِ طامحةٌ إلى تجليَةِ كلِّ منْقبةٍ حميدة، ومسلكٍ قويم، ونجابةٍ عقلية، ورُقيٍّ وجداني، تتلمس مسالكَ الكشف عنه في تدبر آية من الكتاب العزيز، أو في تحليل موقف أو حادثة من أحداث السيرة النبوية المنيرة، أو في تشريح شخصية فذة من أشخاص الأنبياء عليهم السلام، أو الصحابة عليهم الرضوان.

٢. المقالات: خطاب التشكيل.

إن تحليل هذه المقالات كاشفٌ عن توافُر حزمةٍ من التقنيات جعلتْ لها ذائقة ممتعةً جاذبة للمتلقي، وفيما يلي بيان لأهم علامات التشكيل التي اعتمدها الكاتب في معمار الكتابة

١-١- الحرص على العنوان بوصفهِ عتبةً متعددة الوظائف.

لقد حرصتْ هذه المقالات على استثمار العتبة النصِّيَّة المتمثلة في العنوان، وقد نهضت عنوانات هذه المقالات بزمرةٍ من الوظائف هي:

أولا: وظيفة الكشف عن المضمون الكلي.

ثانيا: وظيفة التشويق والإغراء بمتابعة القراءة.

ثالثا: وظيفة الحِجَاج والإقناع بالمحتوى.

رابعا: وظيفة التركيز، والتلخيص، والدلالة على المضامين المركزية.

٢-١- استثمار تقنية القص/السرد.

لقد ظهر نوعُ حِفايةٍ بالحكْيِ على مستويات متعددة تُجاوزُ بعضَ العنوانات الرئيسية للمقالات في مثل: حكاية قلب، وحكاية الهجرة، إلى بعض العنوانات الجانبية من مثل: قصة الحج، في مقالة ذكرى الفتح المجيد.

وقد شاع في لغة عدد من المقالات نمطُ الحكي باستثمار عباراتٍ حِكائيَّةٍ بامتياز من مثل (مقالة ذكرى الفتح المجيد)، قوله: «كانت الأيام تمضي والأحداث تتوالى، فلا يزداد محمد (ﷺ) إلا رفعة ومكانة»! ويقول: «كانت الأيام الأولى في المدينة الجديدةِ عصيبةً على المسلمين».

واللجوء إلى لغة السرد/ الحكي اختيارٌ موفقٌ يداعب فطرةً إنسانية نزَّاعةً إلى الأُنْسِ!

٣-١- حضور النور.

ومن أهم ملامح التشكيل الفني في مقالات هذا الكتاب هو الحضور الكثيف للنور، وأقصد به حسنَ استثمارِ الاقتباس من القرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة الشريفة.

وهذا الاقتباس يأتي في المقالات متعددَ الوظائف، يسعى إلى بنائها، بوصفِ عددٍ من هذه الاقتباسات هي ركيزةَ البناء في عدد منها كما في (هدايات آية)، أو بوصفِها دعما وتعضيدًا للرؤى والآراء التي تطرحها، أو بوصفِها تصحيحًا لِما شاع غيرَ صحيحٍ من الآراء.

٤-١- التجديد وقطع الألفة.

ومن ملامح التشكيل الفني في هذه المقالات ظهورُ نزوعٍ نحو التجديد في معمار بعضها سعيًا لقطعِ الألفة، ومطاردة الملالة، وتحقيقا للإدهاش.

وهو ما نراه في تنويع مفتتَح بعض المقالات بِعتبةٍ خاصةٍ سُميتْ أحيانا باسم الومضة؛ في الومضةِ نقطةُ نورٍ مفاجئة، تكشف عن مظاهر الجمال والفتنة، ثم هي تدعوك للتلبُّث والمواصلة، كما في مفتتَح مقالة (حكاية الهجرة) عندما افتتح بما يُعلي من منزلة الهجرة في نفوس الصحابة الكرام ساعةَ عَدُّوا وأرَّخوا بدءا منها!

وهذا التنويع جاء كذلك في خواتيم عدد من المقالات، ففي مقالة (حكاية الهجرة) نفسِها يختتم المؤلفُ المقالةَ بمُختَتَمَيْن هما:

أ- لفتة.

ب- خاتمة.

٢. أنس مراد: نقطة نور في الظلام.

ترجع حفايتي بمقالات هذا الكتاب لأسبابٍ عديدة تستصحبُ مادتَه، وموضوعاتِه، وشواهده واقتباساتِه ومعماره، ولغته. ثم هي ترجع لمكانة صاحبها من نفسي، وما يمثله بالنسبة لجيلي، فأنس مراد من الشبيبة المنتمية التي تحرص على نمطٍ من التكوين الذاتي، الذي يزداد صلابةً مع مرور الوقت، وهو من الشباب الذين يعلنون عن هويتهم العريقة، ويفخرون بهذا الإعلان عن هذا الانتماء في زمانٍ صعب!

وهو مثالٌ طيبٌ لمن يعرفون الطريق، ويلتمسون التهدي للطريق من أوسع مساراته، وأرشدِها، وأرجاها بالعائد الخيِّر في التحامٍ يرطِّبُ على الأفئدة المتصدعة بسببٍ من الهجوم الضاري على محور الهوية والانتماء.

خالص التحية للعزيز أنس، وهو يعيد لنا بمقالاته بعضا من الأُنْسِ المفقود في عالم التوحُّشِ البغيض!



مقدمـة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

هذه مقالاتٌ كتبتُها في أوقاتٍ متباينةٍ، ونشرتُها في مواقعِ التواصل الاجتماعي، فكان بعضُ الإخوةِ يشجعني على إصدارِ كتابٍ، ولم ينشرحْ صدري بهذا الأمرِ قط ولا كان لي فيه رغبةٌ، حتى حثني أحدُ الأفاضل على جمْعِ شيءٍ مما كتبتُ لِنشرِه في كتاب، فألقى اللهُ في نفسي العزيمةَ على ذلك، وانتقيتُ مما كتبتُ أشياءَ ضممتُها بين دفَّتَيْ هذا الكتاب اللطيفِ، وأنا لِمَن دفعني إلى هذا الجمْعِ والنشرِ من الشاكرين.

وهي على ضُروبٍ متنوعة، منها ما استُغرِقْتُ فيه ساعات، ومنها ما جاءَ من رأس القلمِ، والجامعُ بينها أنها مستلَّةٌ من السيرةِ النبوية وما يتعلق بها في الجملةِ، فكانت تلاقي استحسانًا، فَرأيتُ بعد التشجيع أن أوسِّعَ نطاقَ الانتفاعِ بها، وأردتُ أن يلتمسَ فيها القارئونَ ما قد يُفيدُ في حياتهم وعلاقتهم بالحبيب صلوات الله وسلامُه عليه، وأصحابِه رضي الله عنهم، ولعلَّ قارئا يجدُ فيها نفعًا، فتنالُني بركةُ دعاءٍ صادقٍ منه، والله الموفِّقُ وهو المستعانُ.

أنس مراد الرهوان

١٤٣٩/١/١٤

محمد ﷺ: أمةٌ في رجلٍ

إذا آنسْتَ من دهرك خلوةً، ومِن نفسِك صفاءً، فاعْرِضْ على قلبكَ الأُطُرَ العامةَ التي كانت تدور فيها حياةُ رسول الله ﷺ، واعجَبْ منها ما شئتَ، فهي من أدعى الأمور للتعجُّبِ!

فهُو قبْل نبوَّتِه نشأ وشَبَّ واستوى عُودُه على الكمال، وإذا نظرتَ في سياقِ حياته ومحيطِه ازداد هذا الأمرُ عندك غرابةً، يزيلُها عنك علْمُك أن اللهَ أعلَمُ حيث يجعل رسالتَه، وأن الله لن يختار لِحَمْل أشرفِ الكلام وتبليغِه، إلا أطهَرَ خلْقِه نفسًا وأنقاهم قلبًا.

أما بعد النبوة فقلِّبْ سيرتَه كيف شئتَ، لن تجدَ إلا عجبا، فهو الرسولُ المُوحَى إليه، المكلَّفُ بتبليغ هذا الوحي، والعملِ به والصبرِ على ما يناله من الأذى في سبيل الدعوة المباركة.

ومع هذا الحمْل الثقيل، فإنك تجدُه مع أصحابه أوفى الناسِ، وأكثرَهم حبًّا لمن يعرفهم وقربًا إليهم، وحرصًا على ما يصلحهم، بحيث يظن كلُّ امرئٍ منهم أنه أحبُّ الناس إليه.

ومع نسائه أحسنُ الناس عِشْرةً وأعظمُهم إحسانا، وأصبَرُهم على ما يكَدِّر بيوتَ الأزواج من ضيق العيش وقلة ذات اليد، وأكثرُهم احتمالا لكلمةٍ نادَّةٍ من إحداهن، وعفويتُه وتلقائيتُه زوجًا تعجزُ عن وصفها الكلماتُ، وتكلُّ

دونَها العباراتُ.. يتجاوز تنطُّعَ الأزواجِ مع نسائهم فيقول لعائشة: "إني لَأعلمُ إذا كنتِ عني راضيةً، وإذا كنتِ عليَّ غضبى «، هو يعلم أنهن يُراجِعْنَه ويهْجُرنَه، يغاضِبْنَه ويَغَرْنَ عليه، لكنه محمد!

الجهاد والكفاح، والصبر والمرابطة، العبادة ودوام الطاعة، التلطف مع الأطفال والضعفاء والخدم، وما سوى ذلك من نواحي حياته.. محمدٌ ﷺ لم يمنعْه كثرةُ أسفاره وعظَمُ أشغاله أن يلاطفَ صبيًّا مات له طائرٌ، ولا أن يسابق امرأةً من نسائه، أو يداعبَ رجلا من أصحابه، أو يمشيَ مع أَمَةٍ في حاجة قد تكون تافهةً بنظر أحدنا. كان يجلس مع الناس وهم يتحدثون في شؤون دنياهم، كان يضحك ويفرح ويحزن، ويعجب ويغضب ويرضى.

محمد ﷺ عظمةٌ صاغها اللهُ رجلا، وأمثلُ صورةٍ للإنسان الذي لم تستلَّ منه منزلتُه العظمى تلقائيتَه وسهولةَ نفسِه، ولم يخلطْ بعضَ أموره ببعضٍ، تقرأ الأحاديثَ فتشعر أن كلَّ حكايةٍ من تلك القصص تحتاج إلى حياةٍ كاملةٍ، فتعْجَبُ أنِ انطوَتْ على كافَّتِها حياةُ رجلٍ واحدٍ، مع ما أكرَمَه اللهُ به من النبوة واختصَّه به من الحظوة التي لم يكن مثلُها لأحدٍ سواه!

الكلامُ عن محمد صلوات الله وسلامه عليه أطيَبُ من ريح المسك، والكتابةُ عنه ألذُّ من شهد الأبكار، واستحضارُ سيرته الشريفة أعذَبُ من الماء البارد على الظمأ، وهو واللهِ بهجةُ النفوس، وأُنْسُ المَجالس، وريحانةُ أهل الأرض، صلى الله على سيدنا محمد وسلم.

حكاية قلب

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾

لو استشعرَ الإنسانُ حقَّ الاستشعارِ أن هذا القرآن العظيمَ الذي تتصدَّعُ له الجبالُ أُنزِلَ على قلبِ رجلٍ من الناس، ليكونَ وعاءً له، يحملُه ويعملُ به، ويبلِّغُه إلى الناس كافَّةً، لَطاشَ عقلُهُ وطالَ تعجُّبُه.

هذا القلبُ الطاهرُ اختارهُ ربُّهُ بحكمتِه البالغة، وصنعَهُ على عينِه، يَحوطه بالتزكيةِ والعناية، ويُمِدُّهُ بألطافِه وينقيه من أدرانِ القلوبِ منذ بواكيرِ الصباءِ الأولى، مذ تلك اللحظةِ التي شُقَّ فيها صدرُهُ، وغُسل قلبُه ونُزِعَ منه حظُّ الشيطانِ، حتى تلك المدةِ التي تسامى ذلك القلبُ فيها عما يرى ويسمَعُ، وشعَرَ أن له حاجةً إلى الاعتزالِ تأنُّسًا بربِّهِ تعالى في وحْشةِ الجاهلية، واقتباسًا من أنوارِ الهدى والحق بعيدًا عن حلْكَة ظلمائها الداجيةِ في القلوبِ.

مسيرةٌ من الطهْرِ والنقاءِ، والصدقِ والأمانة، ورفيعِ الأخلاق وكريمِ الشمائلِ، والعقلِ الراجحِ والنفسِ المطمئنةِ الوادعةِ، والعزوفِ عن السفاهاتِ والدنايا التي أُشْرِبَتْها النفوسُ إلا قليلًا، أُودِعَتْ في تلك المضغةِ المباركة، التي كانت تُعَدُّ لأمرٍ جلَلٍ، لو نزل بجبلٍ لَهاضَهُ أو لَكادَ.

ومِنْ عجبٍ أن الموعدَ العظيمَ، الذي كان ذلك القلبُ يُهيَّأُ له سنينَ عددًا، كان في جوفِ أحدِ الجبال! كأنما هي رسالةٌ من السماءِ أنْ أيها الجبلُ، إنكَ لَتُؤوي قلْبًا هو أهْيَأ منكَ -على لِينِهِ وصلابتِك -لتلقِّي كرامةِ الحقِّ تبارك وتعالى.

عادَ ذلك القلبَّ وجِلًا خائفًا، فقد رأى أمرًا هالَهُ ولم يتعوَّدْ عليه، ولو كانَ غيرُه من القلوبِ التي لم تُصْنعْ لهذا الشأن، لَقضى صاحبُه نحبَهُ في محله. عاد يلتمسُ طمأنينةً وتثبيتًا، فوجدَ صدرًا حانيًا وكلمةً رقيقةً، ويدًا تسندهُ وبشارةً تسكِّنُ روْعَهُ، فلم يلبثْ حتى نزلَ عليه قولُ الحق جل في علاه: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾، ومِنْ قبلُ أخبرهُ ورقةُ بن نوفل أنه لمْ يأتِ أحدٌ بمثل ما جاء به إلا عوديَ، فنهضَ عزمُهُ وقَوِيَ قلْبُه، وعلم أنْ سيكونُ له شأنٌ وأي شأن.

انطلقَ وفي قلبِه نورٌ، داعيًا إليه أهلَه وعشيرتَه، والأقربَ فالأقربَ إليه، فمنهم مَن آمَن واطمأنَّ قلبُه بالنورِ المبين، ومنهم مَنْ صدَّ وأوْصَدَ قلبَه دون أنوار الهدى ودينِ الحق، وإذنْ فلَقد كانت الأيامُ القادمةُ تحملُ في طيَّاتها أحداثًا أليمةً وأنباءً غير سارَّة، وذلك الرجلُ ثابتُ القلبِ، رابطُ الجأشِ، لا يعبأُ بمَن يخالفُه، ولا يردُّهُ أحدٌ عن أمرِ الله الذي أمَرَهُ به.

فما زال تعاقُبُ الأيام والليالي، والأحوالُ تضيقُ وتشتدُّ، والعِدَاةُ يكثرونَ ولا يألونَ جهْدًا في الكفرِ والصدِّ عن سبيل الله، حتى أكرمَ اللهُ نبيَّهُ بأنْ أسرى به إلى بيتِ المقدس، ثم عُرِجَ به في السماواتِ، حتى بلغَ إلى مستوًى يسمعُ فيه صريفَ الأقلام، ورأى أمورًا هائلةً لا يقومُ لمثلها البشرُ، رأى سدرةَ المنتهى

والجنةَ والنارَ، والملائكةَ والنبيين، وسمِعَ نداءَ الجبَّار عزَّ شأنُه وهو يُمضي فريضتَهُ، وصلى بالأنبياءِ إمامًا، ورأى من آياتِ ربه الكبرى، ثم عاد إلى مكةَ ولمَّا تنْقَضِ الليلةُ!

وهذه الحادثةُ العُجابُ لم تذهبْ بلبِّهِ ولم تسلُبْهُ عقلَهُ وهُداه، ولم تُذهلْه عما هو فيه، بل "فظعَ بأمرِه، وعرَفَ أن الناسَ مكذِّبوه، فقعدَ معتزلًا حزينا" ! هكذا فحسبُ، وربما لو كان غيرُهُ -سوى الأنبياء- لَبقيَ فاغرًا فمَه ذاهلًا قلبُه حتى يموتَ.

ثم أذنَ اللهُ بالهجرةِ، فخرج النبي ﷺ مهاجرًا، وتتابعتِ الوقائعُ هناك، بينَ حلفٍ وعهدٍ، وتشريعٍ وتنبيه، وسريةٍ وغزوةٍ، وأمورٍ آخذٍ بعضُها برقابِ بعضٍ، وفي كلِّ ذلك يُظْهرُ ذلك القلبُ شجاعةً فاذَّةً، وثباتًا عظيما، وشموخًا تتواضعُ عنده الجبالُ الرواسي، مذ يوم بدرٍ وَلِياذ الشجعانِ به، حتى يومِ حُنينٍ ودعائِه إلى نفسِهِ: أنا النبي لا كذب، أنا ابنُ عبد المطلبْ، حتى استقامتِ الأمورُ وضربَ الدينُ بِجرَانِه، ودخل الناسُ في دين الله أفواجا.

ذلك القلبُ الشجاعُ الجريء، الثابتُ المطمئنُّ، الذي تلقى الوحْيَ على امتدادِ ثلاثٍ وعشرين سنةً، وهو القولُ الثقيلُ العظيمُ، واستقبلَ المصاعبَ والنوازلَ بتؤدةٍ وسكينةٍ، وقفَ عند قبْرِ أمهِ وهو في أُخرَيَاتِ عمرِهِ، فبكى بكاءً مريرًا -كأنما عاد طفلًا صغيرا -، فأبكى الناسَ حولَه، وأحزنَ القلوبَ بعدَهُ!

صلواتُ الله على محمدٍ وسلامُهُ.. على ذلك القلبِ الطاهرِ الطيِّبِ.

كتابٌ يمضي ووَفْدٌ يَقْدُم

مِن أجملِ ما يمكن أن تقرأَ في كُتُب السيرة النبوية: الأبوابُ التي تُعنى بِكتُب رسولِ الله ﷺ إلى الملوك، وأبوابُ وُفودِ العرب إلى رسول الله ﷺ.

أما الرسائلُ إلى الملوك، فإنك تَستشعر فيها أُمَمِيَّةَ هذا الدين العظيم، وأنه ليس مُختصًّا بِقَبِيلٍ دون آخرَ، ولا بِأمَّة دون أمَّة، وأنه دينُ الله الذي أنزلَه للناس كافَّةً، ورَضِيَهُ لهم وأرسل إليهم خِيرَتَه من خلْقِه ليدعوَهم إليه.

وتجدُ فيها عزَّةَ الإسلام وحُسْن التبليغ، فلم يكن رسولُ الله ﷺ يتردَّدُ عن إرسالِ كتابٍ مِن كتُبِه خوفًا من مقابلةِ كتابه بِجيشٍ عَرمْرمٍ يستأصِلُ الإسلامَ ويُبيدُ خضراءَهُ، ولم يمنعْه من ذلك الظنُّ أنْ لن يُسْلمَ فلانٌ من الملوك، أو أنْ سَيُمزق كتابَه، كان همُّه كلُّه أنْ يُبلغَ دينَ الله على رِضَى العبادِ وسخطِهِم.

وتستفيد أيضًا معرفَةَ الكُتَّابِ من الصحابة الكرام، ومعرفةَ رُسُلِ رسول الله إلى ملوك الأرض، وغيرَها من الفوائد.

أما الوفودُ، فَعالَمٌ آخرُ من عوالِمِ السيرة النبوية العظيمة، يُبيِّن لك طبيعةَ التفكير العربي، ويُوقِفُك على سوادِ الجاهلية ونتَنِها وكيف تغتسلُ النفوسُ بالإسلام من أوضارها وعَيْبَتِها.

تجدُ في ذلك الباب دوافعَ مختلفةً للناس لِيُسلموا، فمن يَنْساقُ للدين طوَاعيةً، ومَن لا يحملُه على الإسلامِ إلا السيفُ فوقَ رأسِه، مَن يغرسُ اللهُ في قلبه حبَّ الله ورسولِه، ومَن يَدينُ الدينَ حبًّا للدنيا، مَن يصطفِيه اللهُ في الطليعةِ، ومَن يتربَّصُ نصْرَ المسلمين على قريشٍ لِيُسْلمَ، مَنْ كان يَسَعُهُ أن يكون من الأولين، فكان من الآخرين!

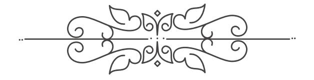
وتقِف أيضًا على لطائفَ تاريخيَّةٍ وبُلْدانيَّةٍ وفوائدَ في الأنساب، فكم من موضعٍ لِبعض القبائل لو أفنيْتَ عمْرَك في البحث عمَّن يعْرفُه اليومَ لما وجدتَ، وكَمْ قبيلةٍ اندثرَ اسمُها في القبائل فلا يُدرى خبرُها إلا لمامًا، قبيلة "الحدان" مثلا قبيلةٌ أزديَّةٌ ربما لا يعرفها إلا من قرأَ اسمَها في الكتب، بنو" الخشين "من قضاعةَ ربما لا وجودَ لهم بهذه النسبة.

أما الأراضي فتستفيد إقطاعاتِ رسولِ الله ﷺ لبعضهم، وتعرفُ أيضا كُتَّابَ رسولِ الله ﷺ وشهودَه على كتُبِه لهؤلاء، وغيرها.

وتجد أيضا في الوفود أهلَ كتابٍ فتستفيدُ تعامُلَ النبيِّ عليه الصلاة والسلام معهم.

ومِنْ أعظم ما تقف عليه في ذلك = مَنْ صَدَق إسلامُه، ومَن لم ترسَخْ قدَمُه فيه بعْدُ، وتعرف مَوالِيَ الله ورسولِه ومنازلَهم في الإسلام، جهينةُ وغطفانُ ومُزَيْنةُ مثلًا موالِي اللهِ ورسوله من دون الناس، ثقيف مِن آخِرِ

العرب إسلاما لكنهم - كقريش ورهط عدي بن حاتم من طيئ، وعبد القيس من ربيعة - أَثْبَتُ الناس إسلامًا حتى أيام الردة، جرير بن عبدالله أسلم متأخرًا لكنه حاز من رسول الله موقعًا عظيما، مسيلمةُ الكذابُ أفسد كثيرًا من العرب، مِن جراءِ كَلمةٍ بَلَغَتْهُ عن رسول الله في شأنه، فحملَها على غيرِ محْمَلٍ.. وهكذا!



أنت بمن تصاحب

كان جلساءَ رسولِ الله بمكة، أيامَ الإشراقةِ الأولى لِدِين الله على ظلْمَاء القلوب، أولئك النفرُ الأطهارُ الأبرارُ، الذين استحكَمَ الإسلامُ في قلوبهم النقيةِ مُنْذ دخلها، وانسابَ فيها حتى استمكن في سويدائها، فأُشْرِبَتْهُ نفوسُهم الشريفة، وامتزج بأرواحهم الشفيفة، وكان منهم ملْءَ السمع والبصر، وفوق الوالدِ والولد والمال.

تلك القلوبُ التي كانت -قريبا -في أوحال الدنيا غارقةً، انتشَلَها الإسلامُ بيدٍ حانيةٍ وطيَّبها وأنقاها من كدرِ الشرك وأذهبَ منها حظَّ الشيطان ووساوِسَه، فيا لله كيف لقومٍ يدينون في لحظةٍ دينًا مخالفًا لعاداتهم، معاديًا لإلْفهم وتراثِ آبائهم وأجدادِهم، أن يعودوا في اللحظة الأخرى أشدَّ في الدين صلابةً من الشُّمِّ الرواسي، وأمنَعَ لرسولِ الله ﷺ من الحصون الحصينة، وأسرعَ في الدعوة إلى الله من النهَرِ الساري الذي يروي الدنيا بمائه العذبِ الرقراق!

كان يَغيظُ الكفَّارَ مجلسُ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى هؤلاء القوم المستضعَفين بين قومهم، الأقوياءِ في أمر ربِّهم، الذين نبذَتْهم عشائرُهم لا لشيء إلا أن قالوا: ربُّنا الله، تلك الكلمة التي كانت أنكى من صوارم

السيوف في نفوس أعداء الله ورسوله، كيف لا وهي تريد أن تدُكَّ أصنامَ الهوى في نفوسهم لتُمَهِّدَ طريقَها إلى تلك الأحجار المرصوصة التي لا تدري مَن عبَدَهَا ممن لمْ يعبُدْها، والعجبُ كلُّ العجبِ كيف أضلَّ اللهُ أولئك القومَ حتى بلغ بهم الضلالُ عبادةَ الحجارةِ التي ينحتونها بأيديهم؟!

أراد أولئك الطغمةُ المستكبرون من رسول الله ﷺ أن يطرُدَ تلك الزمرةَ النيِّرَةَ الوقَّادةَ، التي تضيء لها أرجاءُ مكة كما تضاءُ بالنجوم الزاهراتِ حوالكُ الدجى؛ ليجلسوا إليه ويسمعوا منه، فوقَعَ في نفْس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقعَ، ويقينًا وقعَ في صدور المؤمنين من الحُزْنِ ما اللهُ به عليمٌ، حتى أنزل اللهُ على رسوله نصًّا خالدًا لا تمحوه صروفُ الدهْر ولا تعبث به رياحُ الأهواء، نصًّا يرفع أهلَ الإيمانِ والتقوى ممن ليس له إلا الإسلامُ نسبًا وشرفًا، على من اتَّضَع بالكُفْر والطغيان وإن كان يُسَامِتُ الذُّرَا نسبًا.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾



حين يكون الصدقُ رجلا

جاء في الأثر: «ما أظلَّتِ الخضراءُ، ولا أقلَّتِ الغبْراءُ مِن ذي لهجةٍ أصدَقَ من أبي ذرٍّ».

هذه التزكيةُ حين تصدُرُ عن رسول الله ، فهِيَ الحقُّ لا ريْبَ فيه ولا يُخالطه شكٌّ، وأبو ذرٍّ كان متَّسقًا مع هذه الصفة وكانت مُطَّرِدةً فيه، لا ينفكُّ منها ولا تنفكُّ منه، كأنما صِيغَ منها وكأنما هيَ معجونةٌ بنفْسِه الشفيفة.

فهُو قبْل إسلامِه بثلاث سنواتٍ كان يصلِّي لله حيثُ وجَّهَهُ اللهُ، ثم لمَّا بلَغه خبرُ النبوَّة أرسَلَ أخاه ليُجلِّيَ له الأمرَ، فلم يقعْ منه كلامُ أخيهِ موقعا، فعَزَمَ بِدافعِ الصدقِ في نفسه على الاستيثاق من الخبر، فتِلك النفسُ التي صدَقَتْ ربَّها في الجاهلية تبحث عن ما يعْضدُ خَصلةَ الخير تلك ويُنَمِّيها، فانطلق حتى وجَدَ رسولَ الله، فآمنَ به وصدَّقَ، ثم خرج صادعًا بإسلامِه في ملَأِ قريش وسُرَاتِهم غيرَ عابئٍ بنَكالِهم، كأنَّ مُقتضى الإسلام إذ يُلامِسُ قلبَه الصادقَ أن لا يكتُمَه لحظةً في نفسه، أنْ يُبَيِّنَ أنه صادقٌ في اتِّباعِه لهذا الدين القويم بالجهر به .

ثم رأى أنَّ كمالَ الصدق في اعتناق الإسلام ألا يستأثِرَ به دون قومِه، فخرج داعيًا إلى الله، فأسلمَ شطرُهُم بدعوته وأسلم الشطرُ الثاني عند هجرة

النبي إلى المدينة، وأسلَمَتْ قبيلةُ أسْلَمَ، وذلك كلُّهُ بِفَضل الله سبحانه، ثم بِبَرَكة الصدْق النابعِ من فؤاد أبي ذرٍّ!

ثم جاهَدَ في الله حقَّ الجهاد، وزَهِد في الدنيا أعظمَ ما يكون الزهدُ، وقام بالصحبة أَتَمَّ القيام، وكان وزيرًا ونصيرًا راسخَ القدَمِ في الإسلام صادقَ الاستمساك به، فلمَّا كانت غزوةُ العُسْرةِ أبْطَأَ به بَعيرُه، فتَرَكه وانطلق سيْرًا على قدمَيْه، فحِسُّ الجهاد في نفسِهِ صادقٌ كَصِدْق لهجته، فلما رآه النبيُّ قال: "رحِمَ اللهُ أبا ذرٍّ، يمشي وحدَه، ويموت وحدَه، ويُبْعث يوم القيامة وحدَه".

ولقد سأل النبيُّ أصحابَه مرَّةً: أيُّكُم يلقاني على الحال التي أُفارقُه عليها؟ فقال أبو ذر: أنا يا رسولَ الله، فزكَّاه النبيُّ ، وكان أبو ذرٍّ مِن ذلك العهدِ على أَوْضَح السبيل، كان له مذهَبُه في المال وهو مخالفٌ لِجَمْهرة الصحابة، لكنه مُتَّسِقٌ مع خَلَّةِ الصدْق في نفْس أبي ذرٍّ، فهُو لم يكُنْ ينهى الناسَ عن الادِّخار ثم يستبقي من ماله شيئا، ولم يُخْلِفْ عهدَه مع رسول الله، فضاق بشدَّتِه أهلُ الشام فكتبوا إلى عثمان، فكتَبَ إليه يستقْدِمُه فقَدِمَ عليه، فأخبَرَه أنَّ الناسَ لا يطيقون من الزهد ما يطيقُ، فسَأله أبو ذرٍّ أن يأذَنَ له بالخروج، فأَذِن له، فخرَج إلى الربَذَة شرْقِيَّ المدينة، وهُو أوَّلُ مَنْ سَكَنها .

ثم حضَرَتْه منيَّتُه، فأَمَر زوْجَهُ أن تضعَه على الطريق لعَلَّ ركْبًا يمرُّون به فيدفنونه، فمَرَّ به ركْبٌ فيهمُ ابْنُ مسعود، فلما رأى أبا ذرٍّ، بكى وذكَر نبوءةَ رسولِ الله، ودفَنَه في ثوبٍ لأحدِ الأنصارِ لم يُخالطْ مالَهُ مالُ سلطانٍ، وصلَّى عليه بأصْحابهِ ثم دفنوه هنالك، ومضى إلى ربِّهِ صادقَ النفْسِ واللسانِ، حافظًا للعهد تقيَّ الجَنانِ!

نعم الرجل عبدالله

صحابةُ نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه هم خيارُ الناس بعد النبيِّينَ، وخيرُ صحابةٍ لنبيِّهم وأحسنُهم أثرًا على أمَّتِه بعدَه.

بِوَصْفي مولَعًا بالسِّيَر فالصحابةُ يَعجبُ القارئُ لأخبارهم وما امتازوا به على السابقين واللاحقين، ومنهم المُبْرَزون حتى في تلك الطبقة العليا من الناس، كالخلفاء والسابقين وسادات الأنصار وشجعانهم، غير أن منهم رجلًا تستوقفني سيرتُه ومواقفُه كثيرًا، ويَبْهَرُني ثناءُ أكابرِ الناسِ عليه، وهو عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

هذا الرجل كان فيه خصلتان لو لم يكن فيه إلا هما لَكَفَتَاهُ شرفًا وفضلًا: صلاحٌ منقطعُ النظير، واتباعٌ لسنَّةِ النبيِّ بصورةٍ فذةٍ كان الصحابةُ أنفسُهُم يَعْجَبون منها، فهُو متقدمُ الإسلامِ ومِن المهاجرين، وأثنى عليه رسول الله بأنه «رجلٌ صالحٌ»، وكان يومئذ يافعا.

وإني أستشفُّ مِن سيرته أنه كان رجلًا هادئَ النفْس نقيَّ الذهن، مع ما زانه الله به من سمُوِّ النفس وصلاحِ القلب.

أما أخبارُه فأعاجيبُ.. انظر مثلا الأحاديثَ التي جاءت من طريقه، كثيرٌ منها يروي السنةَ عن رسول الله ثم يعقِّبُ الراوي: وكان ابنُ عمرَ يفعلُه، وكان ابن عمر يصنع مثلَه... ونحو ذلك، ويظهر أيضا أنه كان حريصًا على

العلم بصورة فاردة، جاء عنه أنه رمَقَ رسولَ الله شهرًا كاملا يسمع منه ما يقرأ في سنَّة الفجر!

وما حديثُ دخولِه الكعبةَ بعد رسول الله بِخَافٍ على مَن قرأ ترجمتَه، بل جاء في البخاري عنه أحاديثُ المواضعِ التي صلى فيها رسولُ الله في رحلته للحج، فتجدُ أنه كان يتتَبَّعُها ويصلي فيها، بل إنه رصَدَ موضعًا رأى النبيَّ يبول فيه فبال فيه. وأخبارُه في ذلك كثيرة.

كان ابنُ عمرَ زاهدًا عابدًا شفيفَ النفس، طاهرَ القلب لم تُوغِلِ الدُّنيا في فؤادِه، عَفَّ اللسانِ لم يلعنْ أحدًا في عُمْره، نظيفَ اليدِ لا يتخوَّضُ الفتنَ التي تَدْهَمُ الناسَ، لقد قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: ما رأيتُ أحدًا ألزَمَ للأمرِ الأوَّلِ من ابنِ عمر. وجاء عن حذيفة: ما منا أحدٌ يُفَتَّشُ إلا يفتَّشُ عن جائفةٍ أو مُنَقِّلةٍ إلا عمر وابنه. وأما جابر بن عبدالله فقد قال: ما منا أحد أدرَكَ الدنيا إلا وقد مالت بهِ إلا ابن عمر. وابنُ مسعود وهو في العلم والفضل مَنْ هو، يقول: لقد رأيتُنا ونحن متوافرون، وما فينا شابٌّ هو أمْلَكُ لِنَفْسه من ابنِ عمرَ!

ولقد أحسن أبو سلمة بن عبدالرحمن بن عوف ما شاء حين قال: إنَّ عمرَ كان في زمانٍ له فيه نُظراءُ، وإنَّ ابنَ عمر كان في زمانٍ ليس له فيه نظيرٌ، وليس هذا غضًّا من قدْرِ عمرَ ولكنْ مقارنةٌ للحال، وإلا فَعُمَرُ خيرٌ مِن ابنه بلا ريب، رضي الله عنهما.

الصدِّيقةُ.. والبلاغةُ الفاخرة!

لا يخفى على أدنى قارئٍ لِسيرةِ أمِّ المؤمنين عائشة الصدِّيقة رضيَ اللهُ عنها ما حبَاها اللهُ من صفاتٍ حميدةٍ ومواهبَ جليلةٍ، وكان لها من فصاحة اللسان ورفيع البيان ما يعجز عنه البلغاء وتُكسَر دونَه أقلامُ الأدباء.

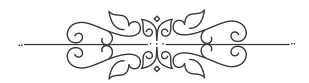
كانت إذا وَصَفتْ شيئا حرَّكَتْ بذاك الوصف مشاعرَ السامع، يسألُها السائلُ عن أمرٍ، فتختصرُ له الجوابَ اختصارًا بديعًا، وتجيبُ بما لا يدَعُ في قلب السائلِ شيئا. سئلَتْ عن خُلُق نبينا ﷺ فقالت: إنَّ خلُقَ النبي كان القرآنَ. هل مرَّ بكَ أوجَزُ وأجمَعُ من هذا الجوابِ الذي انتظم فيه كلُّ خلُقٍ كريمٍ، وانتفى منه كلُّ سجيَّةِ شرٍّ؟!

ولَّمَا سئِلَت عن عمل رسول الله قالت: كان عملُه ديمَةً! كأنها تُرْشد السائلَ إلى أنَّه لن يقدر على ذلك العمل، وأنَّ دوامَ العملِ خيرٌ من كثرتِه أو تنوُّعِه. وحين سئلتْ عن صنيعه في بيته قالت: كان يكونُ في مهنةِ أهله، فإذا حضَرَتِ الصلاةُ خرجَ إلى الصلاة. هيَ باختصارٍ تبيِّنُ أنه كان في بيته رجلًا من الرجال، لم يكن ملِكًا ولا متكبِّرا.

وبإسنادٍ فيه مُجالد -وهو ليِّنُ الحديث -عن مسروق عن أم المؤمنين: ما ملأتُ بطني من طعامٍ فشِئْتُ أن أبكيَ إلا بكيْتُ، أذكُرُ رسولَ الله وما كان فيه من الجهد.

وذكَرَ بعضُهم عندها أن رسولَ الله أوصى إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -يعني بالخلافة -فقالت: متى أوصى إليه، وقد كنتُ مُسْنِدَتَهُ إلى صدري فدعا بالطسْتِ، فلقد انْخَنَثَ في حجْرِي فما شعرتُ حتى قُبِضَ؟! وانخنث: انثنى وانكَسَر لاسترخاءِ أعضائِه صلواتُ الله عليه وسلامه. وذُكِر عن أحدهم قولُه: فلا واللهِ لم تصنعْ بي من مدَّةٍ أيُّ كلمةٍ ما صنعَهُ وصفُ أمنا عائشة، وإني والله ما تذكرتُها إلا بكيتُ وتصورْتُه كما قالت!

وقصصُ بلاغتِها وفصاحتها لا يسَعُ المقامَ بسْطُها، وليس غريبًا على من عاشت في كَنَف محمدٍ صلواتُ الله وسلامه عليه أن تَبْلُغ بفصاحتها الذُّروةَ العُليا، رضي الله عنها وأرضاها.



العقل.. والخلوات

جبلُ حراء، ومَن منا لا يعرفُ حراءَ؟

هذا الطوْدُ الشامخُ اتخذَ محلَّهُ في التاريخ عجبا، فلَقد كان متحَنَّثًا لطائفة من الناس، كان الجامعَ بينهم وفرةُ العقلِ وغزارةُ الحكمةِ، وإنْ كان لِكُلٍّ منهم وِجهةٌ هو مُوَلَّاها.

عبد المطلب جدُّ نبيِّنا ، ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث -وهُما ابنا عَمَّيْ أمِّ المؤمنين خديجة بنت خويلد -، وزيد بن عمرو بن نفيلٍ ابنُ عمِّ عمرَ بن الخطاب، وغيرُهم .. كلُّ أولئك تحنَّثوا في هذا الغار الذي الْتَقَتْ فيه السماءُ والأرضُ، وكلُّهم مِن أعقلِ أهل زمانهم، فأما عبدُ المطلب فلا أعلم إلامَ انتهى أمرُه، ولقد تنصر عثمان وورقة -وآمَنَ بعدُ -، واتخذ زيدٌ دينَ إبراهيم له دينًا !

ثم كان سيدُ الحنفاء وإمامُ العابدين، الذي ذهبَ الشرفُ بهذا الغار كلَّ مذهبٍ لَمَّا كان هو يعتكف فيه، فصار لا يُذْكَر إلا به، وصار الجبلُ يُعْرَف بجبلِ النور .

محمدٌ ﷺ تتَامَّ له كمالُ السمْتِ ورجاحةُ العقلِ في صبائِهِ وشبابِهِ وسائرِ دهرِه، ونشأ صالحًا يعلمُ أن ما عليه قومُهُ ليس بشيءٍ في موازين العقل السليم فكيف بميزان الرضا الإلهي ؟ لك أن تتصور أن حربًا ضَروسًا كانت

ستشتعلُ بين بطون قريش بسبب ما يرونه شرفًا، بسبب خلافٍ على وضْعِ الحجر الأسود في موضعه، فأطفأ اللهُ بِنبيِّه جذوَتَها وهُو بعدُ في وفْرة الشباب، وفي القومِ مِن كبارِ السن وأصحاب الرأي مَنْ فيهم .

ما التحنثُ؟ التحنثُ من مفردات العربية التي يراد بها الضدُّ، التحنثُ يلوحُ في معانيه الميْلُ عن الحق، إلا أنه اسْتُعْمِلَ بمعنى التطهُّرِ من الحِنْثِ، وعُرف بمعنى التعبُّد كما فسَّرَتْه أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها. لقد حَاطَ اللهُ نبيَّه الكريمَ بجميل عنايته، وأنشأه على أكملِ الطبائعِ وأحسنِ الصفات لِمَا يريد به مِن كرامتِه العظمى، فما زال به ذلك حتى حُبِّبَ إليه -قبل مبعثه بقليل -التحنُّثُ، فكان يخرجُ إلى هذا الغار يخلو بنفسه، يتفكرُ فيما حولَه، يَتعبَّد ربَّه بهذه الخلوة وذلك التأملِ، حتى فَجَأَهُ الوحيُ وهو في ذلك الغار!

ثم تَتابَعَ الوحيُ، فكان مما جاء فيه: ﴿**قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ**﴾. الخلوةُ من أعظم البواعثِ على صفاء الفكْرِ ونقاءِ الذهن. الخلوةُ ثمرةُ العقلِ، والخلوةُ محرِّكُهُ أيضا.

ذكر الإمامُ أحمدُ عن وهب قال: مكتوبٌ في حكمة آل داود: حقٌّ على العاقل ألا يغْفُل عن أربع ساعات، ساعة يناجي فيها ربَّه، وساعة يحاسبُ فيها نفسَه، وساعة يخلو فيها مع إخوانِه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذَّاتها فيما يحل ويُحْمَدُ، فإن في هذه الساعة عونا على تلك الساعات وإجمامًا للقلوب.

أشجان الصالحين وأشواقهم

فرغ سيدُ الصالحين ﷺ من غزوةِ أُحدٍ، بعد أن أَوْدَع أرضَها سبعين شهيدا، فهاجَتْه أشجانُه إلى أن قال يوما: أَلَا واللهِ لَوددتُ أني غُودِرْتُ مع أصحابِ نحْصِ الجبل!

وحين طرقَتْ هالةُ بنت خويلد بابَه، ارتاعَ وقال: اللهم هالةَ. لأنه ذكر حبيبتَه الأولى، وسيدةَ نساء العالمين، خديجةَ بنت خويلد رضي الله عنها.

ولما مات ابنُه إبراهيم رحمه الله، ذكر أحدَ أصحابه المتوفَّيْن في غابر الدهْرِ، فقال: الْحَقْ بِسلفنا الصالحِ عثمانَ بنِ مظعون.

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة واستوخموها، طارت بِبلالٍ رضي الله عنه الأشواقُ إلى مكة شرَّفها الله، فأنشدَ:

ألا ليت شِعري هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادٍ، وحولي إذخرٌ وجليل؟
وهل أرِدَنْ يومًا مياهَ مجنَّةٍ؟ ... وهل يبدوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ؟

ولما حضرت الوفاةُ أبا بكر الصديق رضي الله عنه، ظهرتْ أشواقُه إلى النبي على هيئة سؤال: في أي يوم تُوفِّي رسولُ الله ؟

وإن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما مِن ليلةٍ إلا وأنا أرى فيها حبيبي -يعني الرسولَ ﷺ-. ثم يبكي!

وجاء رجلٌ من الصحابة إلى النبي ، ملءُ قلبِه شجنٌ وشوقٌ وحبٌّ، فقال في كلامٍ له: وإني لَأكونُ في البيت فأذكرُك، فما أصبرُ حتى آتيَ فأنظرَ إليك ...!

وجعلَتْ أمُّ أيمنَ رضي الله عنها تبكي بعد وفاة ربيبِها محمدٍ ، فسألها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فقالت: ... ولكني أبكي لانقطاع الوحْي من السماء. فهجيَّتهما على البكاء، ولعلها هيجت كل من يقرأ قولها!

وأما فاطمةُ رضي الله عنها وأرضاها، فعاشت بعد أبيها صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه أشهُرًا ستةً، تذوب من حزنها وشوقها إليه.

وحلَّقَتْ بخبَّاب بن الأرَتِّ رضوان الله عليه أشجانٌ قديمةٌ، فقال يوما: هاجرْنا مع النبي ، نريد وجهَ الله، فوقع أجرُنا على الله، فمِنَّا مَن مَضى لم يأخذْ مِن أجرِه. منهم مصعب بن عمير ....

وكان عبدُ الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صائما فأُتِيَ بطعام، فكأنما نظر في الطعام إلى صورة مصعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك الكفنِ الذي إن غطى رأسَه بدَتْ رجلاه، وإن غطى رجلَيْه بدا رأسُه، وكأنما لاح له رسْمُ حمزةَ بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس له ما يُكفَّن فيه إلا بردةٌ له. فهاجَهُ على البكاء حتى ترَكَ الطعامَ!

أما أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ضيف الإسلام، فقدْ حمَلَه جودُ جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتحمُّلُه إياه على أن قال في ساعة شجنٍ وذكرى مؤلمة: ما احتذى

النعالَ ولا ركب المطايا أحدٌ بعد رسول الله خيرٌ من جعفر، وقال أيضا: وكان أَخْيَرَ الناس للمساكين جعفرُ بن أبي طالب، كان ينقلبُ بنا فيطعمُنا ما كان في بيته، حتى إنْ كان لَيُخرِج لنا العكَّة التي ليس فيها شيءٌ، فنَشقُّها فنلعقُ ما فيها!

وكان كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنهُ إذا خرج إلى الجمعةِ، صلى على أسعد بن زرارة رَضِيَ اللهُ عَنهُ، واستغفر له، فسأله ولدُه عبد الرحمن، فقال: أيْ بُنَي، كان أول من جَمَع بنا بالمدينة في هُزْم النبيت من حرة بني بياضة في نقيعٍ يقال له: الخضمات ....

ودخل واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ رضي الله عنهم على أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وكان واقدُ مِن أعظمِ الناس وأطولِهم، فقال أنس: مَن أنت؟ قال: أنا واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ. فقال أنس: إنك بسعدٍ لَشبيهٌ. ثم بكى فأكثر البكاء!

وكان خالد بن معدانَ رحمه الله قلَّما يأوي إلى فراشِه إلا وهو يذكرُ شوقَه إلى رسول الله ، وإلى صحابته من المهاجرين والأنصار، يُسَميهم ثم يقول: هُم أَصْلي وفَصْلي، وإليهم يَحنُّ قلبي، طال شوقي إليهم، فعجِّل ربِّ قبضي إليك. حتى يغلبه النومُ وهو في بعض ذلك الشجن!



ذهب أهل الدثور بالأجور

لم يكن زهدُ أصحاب محمدٍ ﷺ مانعًا لهم من العملِ والكسْب لِمَا يُغنيهم عن سؤال الناس والذُّلِّ لهم، ولم يكن جوهرُ الزهدِ عندهم خُلُوَّ اليَدِ من المالِ، بل كان خلوَّ القلبِ من الدنيا ولو جُمِعَتْ له من أطرافها.

كان أبو بكرٍ بمكة مُوسِرًا أسلَمَ وله أربعون ألفَ درهمٍ أنفقَهَا في سبيل الله، فلمَّا مات لم يكن عنده شيءٌ إلا شيئًا قليلًا ردَّهُ إلى بيت المال، وعثمانُ بن عفانَ كان غنيًّا، اشترى مربدًا فبَنى فيه مسجدًا، واشترى بئرَ رومَةَ فجعلَها سقايةً للمسلمين، وجهَّزَ جيشَ العُسْرة أعظَمَ الجَهَازِ مِن مالِه.

وأما عبدُالرحمن بن عوف فإنَّه لَمَّا هاجَر، اشتغَلَ بالتجارة فتزوَّجَ امرأةً بوزنِ نواةٍ مِن ذهب، فدعا له رسول الله بالبركة، تصدَّقَ على عهد رسول الله بآلافِ الدنانير وحمَلَ على خمسِمئةِ فرسٍ وألفٍ وخمسمئةِ راحلةٍ في سبيل الله، وأوصى بخمسين ألفًا في سبيل الله، واشترى أرضًا بأربعين ألفًا فأعطَى منها قومَه وفقراءَ المسلمين وأمَّهاتِ المؤمنين، وكان أهلُ المدينة عيالًا عليه، يَصِلُ ثلثَهم ويُقرضُ ثلثَهم ويقضي عن ثلثهم، وخلَّفَ ألفَ بعيرٍ وثلاثةَ آلافِ شاة ومئةَ فرسٍ ترعى بالبقيع، وخلَّفَ ذهبًا قُطِّع بالفؤوس حتى تعبَتْ أيدي الرجالِ منه، وأصاب كلَّ امرأةٍ مِن نسائه ثمانون ألفا!

وكان طلحةُ بن عبيدالله موسرا، كانت غَلَّتُهُ بالعراق أربعَمِئةِ ألفٍ إلى خمسمئة ألفٍ، وبالسراة نحوَ عشرةِ آلاف دينارٍ، وكان يرسل إلى عائشةَ من غلتِه كلَّ سنةٍ عشرةَ آلاف دينار، ويعيلُ قومَهُ، واشترى أرضًا من عثمان بن عفان بسبعمئة ألفٍ فلم يأتِ السَّحَرُ وعنده منها درهمٌ، وخلف مليونين ومئتي ألف درهم ومئتي ألف دينار، وكان سخيَّ اليدِ إلى الغاية حتى سمَّاه النبيُّ : الفَيَّاض.

وأما الزبير بن العوام فكان مالُه خمسين مليونا، وكان الرجلُ يأتيه بالمال يستوْدِعُه إياه فيقول: بل هو ديْنٌ، حتى كان عليه من الدَّيْن مليونانِ ومئتا ألف، فقضاهنَّ عنه ابنُه عبدُالله، فلمَّا فرَغَ مِن ديونِه قَسَم ميراثَه فبلغ نصيبُ المرأةِ مِن نسائه مليونًا ومئةَ ألف. وأمَّا حكيم بن حزام فكان يُعتِق في الجاهلية والإسلامِ مئةَ رقبةٍ، ويَحمِل على مئةِ بعيرٍ، وكان يحجُّ ومعه مئةٌ مِن رقيقِهِ ومئةُ بدَنَةٍ مقلَّدَةٍ فيُعتق رقيقَه وينْحَر هدْيَهُ فيضِجُّ الناسُ بالبكاء ويقولون: يا ربِّ هذا عبدُك أعتَقَ عبيدَهُ ونحن عبيدُك فأَعْتِقْنا!

وهؤلاء وغيرُهم من الصحابة بسَطَ اللهُ لهم الدنيا في أيديهم وقبَضَها من نفوسِهم فكان أيسَرَ شيءٍ عندَهم أن يتصدقوا ويعتقوا بأموالهم؛ لِهَوانِ الدنيا عندهم، ولم يدَعُوا بابًا من الخير إلا وَلَجُوه بهذه الأموال، فذهبوا بالدرجاتِ العُلا والنعيمِ المُقيم، رضي الله عنهم.

مسرح الذكريات (١)

ها هو محمدٌ حاملًا في يديه أنوار الوحيِ يبثُّه في الناس، فمنهم مَن شَرح اللهُ صدرَه للإسلام، ومنهم من ضاقت نفسُه بالحق. كان بلال بن رباح مِن الأولين، انسلَّ الإسلامُ إلى قلبه ليضع عنه الأغلالَ التي على روحه وعقله، فيكفي- حتى ذلك الحين- أنه بالرقِّ مغلولُ الجسدِ مكبُّلُ النفسِ.

كانت جرأةُ بلال في الاستعلانِ بإسلامِه مجاوِزةً كلَّ قيدٍ تُثقِله به خدمةُ سُراةِ بني جُمح، فكان لذلك الجهرِ بالإسلام ثمنٌ غالٍ وضريبةٌ مؤلمةٌ لا بد من أدائها، فقد نكَّل به أسيادُه من بني جمح أعظمَ النكالِ وأوقعوا به ألوانَ العذاب، وضعوا على صدره الصخرةَ العظيمةَ في اليوم الصائف، لكنَّ الإيمان في قلبه كان أرسخَ منها فوق صدره. طافوا به في أزقة مكة بالحبال يجرُّها الصبيانُ، لكنه كان مستمسكا بحبلِ الله المتين، فلم تزلزله عذاباتُهم لحظة، ولم تزحزحه محاولاتُهم عن الحق ميطَ شعرة، كانت "أحدٌ أحدٌ" تُشرق من فمه مؤْذنةً بالحرية التي نالتْها روحُه السامية، فلا يستطيعُ منعَها مِن إدراك السماء كلُّ طغيانٍ لا يجاوز صفحةَ الأرض المنهكة بالشرك والطغيان!

دارت الأيام دورتَها وهاجر المسلمون إلى المدينة النبوية المباركة، وقامت لهم هناك دولةٌ لها خطرُها وشأنُها، وكفارُ مكة لا يدَعون فرصةً يحاولون بها إيقافَ امتدادِ الإسلام إلى القلوب إلا انتهزوها، حتى أذِن اللهُ للسيوف أن

تقومَ بدورها في الفصل بين دين الإسلام وبين ملة الكفر والعدوان، فقامت سرايا وغزواتٌ مهدتِ الطريق ليومٍ يكون فيه الفرقان وتُصَرَّمُ فيه رؤوسُ الشيطان الناتئةُ ببطن مكة.

جاء اليوم الموعود.. يومٌ دبَّره الله تعالى بحكمته العظمى ليَهلِكَ مَن هلك عن بينةٍ ويحيا مَن حيَّ عن بينة، فالتقى الجمعانِ وتقابَلَ الصفَّان وانتهَض الشجعانُ للبِرازِ والطِّعان، ثم اندلعَت الحربُ واشتبك القوم وحمي الوطيس، فلم يلبثوا حتى هزم الله أعداءه ونصر أولياءه وأظهر دينَه، وكان في الكفار أمية بن خلف الجمحي، الذي كان بلال رقيقا عنده في الجاهلية.

وكان أمية رجلا ثقيلا بطينا، فأبصر عبدَ الرحمن بنَ عوف فاستأسرَ له، فأخذه عبدُ الرحمن، فبصُر به بلال فانتقَضَت في فؤاده جروحُ الذكريات الأليمة، وطافت بخلده لحظاتُ العذاب الفاظعةُ، وكأنه شعر أن يديه ما زالتا مكبَّلتيْنِ بشيء لا بد من كسرِه اليوم، فصاح صيحة المغْضَب المكلوم: رأسُ الكفر أمية بن خلف ؟! لا نجوتُ إن نجا!

حاول عبدُ الرحمن أن يصْرِفَه عنه لأنه أسيرُه، لكن وجعَ الذكريات في روح بلال كان أشدَّ من أن يصفحَ عن هذا الطاغي الأثيم، فصرخ بجماعة من الأنصار فاخترطوا أسيافَهم وأعملوها في ذلك الجسد المتْخَم كفرا وطغيانا حتى أزهقوه إلى جهنم، فتحطمَتْ آخرُ الأغلال التي قُيِّدَت بها نفسُ بلال، واندحرَتْ آخر ذكرياتِ العذاب والألم!

مسرح الذكريات (٢)

أبو سفيان بن الحارث، ابنُ عمِّ رسول الله ، كان له لِدَةً ومن الرضاع أخًا، وفي الجاهلية صديقًا، فلما جاء النبيُّ بالإسلام، انقلب الوُدُّ جفاءً والصحبةُ عدَاءً، وأَوْضَعَ أبو سفيان في كل موطنٍ يبغضه اللهُ ورسولُه، وشَهَرَ سيفَه في وجْهِ هذا الدين ما استمسك بِيَدِه قائمُ سيفِه.

لما خرج رسول الله حاملًا معه مشعلَ الفتح المبين ليُضيءَ به جنباتِ مكة المشرَّفة، خرج إليه أبو سفيان، فلقيَه بين مكة والمدينة وعنده أمُّ سلمة، وكان مع أبي سفيان ابنُ عمته عبدُالله بن أبي أمية، ابنُ عمة رسول الله وأخو أم سلمة، وكانا في عداوة الإسلام فرسَيْ رهانٍ، خرجَا اليومَ يحملان أثقالا من الذكريات المؤلمة.

فلما رآهما عليه الصلاة والسلام، كأنما أُوقِدَت في صدره جمرةٌ كان وقودَها كلُّ موقفٍ برزَتْ فيه منهما العداوةُ والكيدُ للإسلام وأهلِه، كان ثِقَلُ تلك الذكريات على قلبه أشدَّ من أنْ يلينَ لهما ويَهِشَّ لرؤيتهما ولو كانا ابنَيْ عمومته وأحدُهما أخاه، حاولَتْ أمُّ سلمة معه، لكن تلك الذكريات كانت أشدَّ وطأةً على قلبه الطاهر!

أراد أبو سفيان أن يأخذ بِيَد ابنه فيهيمَ في الأرض، لعلَّ قلبَ أخيه وابن عمه وأرأفِ الناسِ بالناس يرِقُّ له، فنجح سعيُه ونال مرادَه، وقبِلَهُ رسولُ

الله مسلمًا نقيَّ الصفحة بعد طول تدنيسها بالكفر والعدوان، فزَفَر أبو سفيان كلَّ بغضاء كان يحملها قلبُه في أبياتٍ رقيقة، إذ يقول:

لَعمْرُك إني يــومَ أحمل رايــةً
لِتغلبَ خيلُ اللاتِ خيلَ محمدِ
لَكالمُدْلِجِ الحيرانِ أظلمَ ليلُهُ
فهذا أواني حين أُهدَى وأهتدي
هدانيَ هادٍ غيرَ نفسي ونالني
مع الله مَن طرَّدتُ كلَّ مُطرَّدِ

فاستخرَجَ البيتُ الأخيرُ من فؤاد رسول الله آخرَ زفرات الألم وأطفأ جمرة الذكريات الحزينة، التي طافت تلك اللحظةَ بخاطره الزكيِّ، وهو يضربُ صدرَ ابن عمه ويقول: أنتَ طردتَني كلَّ مطرَّدِ.. أي لوعةٍ هذه يا رسول الله؟

ثم ضرب الدهرُ ضربَه، وقامت غزوةُ حنيْن، وانهزم المسلمون عن رسول الله، فبقي رجلٌ منهم آخِذًا بزمام بغلتِه صلواتُ الله وسلامُه عليه، فسأل عنه فإذا هو ذلك الذي طالما أخَذَ الأزِمَّةَ في معاداة الإسلام، صار اليوم كالطوْدِ الراسخ أمام الآلافِ ممن حمِيَتْ نفوسُهم لاستئصال خضراء المسلمين، غيرَ آبهٍ بأحدٍ منهم، فازداد له رسولُ الله حبًّا، ورجا فيه أن يكون من حمزةَ أسدِ الله وأسدِ رسوله خلَفًا، وما برِحَتِ الأيامُ حتى صار أبو سفيان سيدَ فتيانِ أهلِ الجنة!

على بصيرة

من بديهيات الإسلام المتقرِّرة في النفوسِ، أنَّ نِعمَ الله تعالى علينا أكثرُ من أن تحصى، وأجلُّ من أن يحاطَ بها، وهذا المعنى مصرَّحٌ به في كتاب الله تعالى في سورة إبراهيم وسورة النحل، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾.

ومن أعظمِ النعمِ بعدَ نعمة الإسلام: نعمةُ البصيرة النافذة، التي يُهدى بها المرءُ سواء السبيلِ، ويبصرُ غايتَه إذا كانت أبصارُ الناس لا تُجاوز مواضعَ أنوفهم.

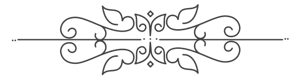
تجدُ في كتاب الله طائفةً من أقوال النبيين والمرسلين عليهم الصلاةُ والسلام في هذا الشأن، وتجد مِن أبيَنِ ذلك قولَ الله جل جلاله في سورة يوسف: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾. وفي السنَّة المطهرة وسيَرِ الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام كلماتٌ في هذا الشأن، حقُّها أن تُخَطَّ بماء الذهب.

"ما أنا والدنيا إلا كراكبٍ استظَلَّ في ظل شجرةٍ، ثم راح وتركَها". يا لهذه الكلمات النبوية الجليلة، التي تظهر فيها البصيرةُ النافذة التي لا تغرُّها زينةُ الحياة الدنيا وبهرجُها، وكم كان لهذه الكلمات الوقادة وأخواتٍ لها أثرٌ لا يخفى على سلوك الصحابة الكرام، ومن كلماتهم في هذا الأمر قولُ عمر بن الخطاب: كان لي صاحبان -النبي وأبو بكر- سَلكَا طريقا، وإني والله

لَأشْركنَّهُما في مثل عيشهما الشديد، لعلي أدرك معهما عيشَهما الرخيَّ. فهذا الرجل العظيم عرفَ الجادةَ فلم يلتفت عنها.

أما أبو مسلم الخولاني، وهو من التابعين، فله كلمة شنَّفَتْ مسامعَ الدهر حُسْنا إذ يقول: أيظن أصحابُ محمد أن يستأثروا به دوننا؟ فوالله لَنُزاحمنهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خلَّفوا وراءهم رجالا.

ومن اللطائف في هذا الباب كلماتٌ للسلف الصالح في استبانة الحجة وسلوك الصراط المستقيم، جاء رجلٌ إلى الحسن البصري فقال: إني أريد أن أخاصمَك -يعني يعرض عليه مسائل يجادله بها -، فقال الحسن: إليك عني فإني قد عزمتُ ديني، وإنما يخاصمُك الشاكُّ في دينه. فهذا الإمام الفذ ارتضى لنفسه أن يحافظ على دينه أن تخطَفَه الشبهات والخصومات، فهو بُلْغتُه إلى الله والدار الآخرة، ولقد قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينَه عرضةً للخصومات أكثَرَ التنقلَ. وليت شعري مَن أكثَرَ التنقلَ والتلفُّتَ متى يصلُ؟ وماذا يبقى له مِن زادِه في الطريق إلى الله ؟!



بين بدرٍ وأحد

من المعلوم من الدين ضرورةً أن الأمورَ تُوزَنُ عند الله سبحانه وتعالى بطريقةٍ قد تُخالِفُ ظاهرَهَا للعيان، وأنَّ الله إذا أنعَمَ على عبدِه بالإيمانِ فقد كساهُ أبهى حُلَّةٍ يتصاغرُ معها كلُّ بهرجِ الدنيا، وتصبح كفَّتَا الميزانِ في حقِّه شكرًا وصبرًا فيكونُ أمرُهُ كلُّه خيرًا.

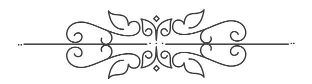
ومَن يطالعِ المغازيَ النبويَّةَ ويتدبَّرُ الآياتِ التي نزلتْ فيها والحوادثَ التي وقعَتْ فيها، يتجَلَّ له هذا الأمرُ أوضَحَ مِن شمسِ النهار، فأمْرُ المؤمنين ما بين نصرٍ وغنيمةٍ، أو شهادة واصطفاء، أو تمحيصٍ وتمييز.

غزوةُ بدر كانت من أعظم الوقائعِ الحربية في تاريخ العالم كلِّه، فأنت تجدُ أن اللهَ هيَّأ كلَّ الظروفِ لمصلحةِ المسلمين، وسخَّر لهم ما لم يُسَخِّرْه لغيرهم، المطرَ يُثَبِّتُهم والملائكةَ تقاتلُ معهم وعدوُّهُم يروْنَهم مثلَيْهم رأيَ العينِ، ورؤوسُ الطغيانِ والكفرِ تُقْطَف ولا تَمْلِكُ من أمرِها شيئًا، فكانت صورةً من أعظم صورِ النصر سواءً في المغازي النبوية أو في الحروب عبرَ الدهور، وكان فيها شهداءُ ومغانمُ طيبَةٌ.

أما أُحُد وما أُحُد، فقد كانت خيرًا وإنْ كان ظاهرُها لا يَسُرُّ، كانتِ الدولةُ للمسلمين أولَ النهار ثمَّ لَمْ ينفرطِ اليومُ إلا وقد كرَّ أجنادُ الكُفْرِ يَسُومون

المسلمين قتلًا وجَرْحًا، وكان المنافق عبدُالله بنُ أُبَي قدِ انخزَلَ بِثُلُث الجيْشِ قبلَ المعركة، واستُشْهِدَ يومئذٍ ثلةٌ من أُسُودِ الإسلام كحمزةَ ومُصعب وأنس بن النضر وطائفةٌ من المهاجرين والأنصار. حقًّا لقد كانت أرواحُ الأنصار يومئذٍ تستبق إلى الجنة! وانتهتِ المعركةُ بما ظاهرُه الهزيمةُ، وإنما هو في حقيقته شهادةٌ وتمحيصٌ، ولم يتحققْ لأهلِ الكفْر مقاصدُهم التي من جُرَّاها خرجوا من ديارهم بطرًا ورِيَاءَ الناس، وامتاز أدعياءُ الإسلامِ المنافقون المُرْجفون من الصادقين من أهل الإسلام وحُماة الدين، وعَرَفَ الناسُ منازلَهم وتطهَّرَ الصفُّ المسلمُ من الخَبَثِ.

فأنتَ إذا قدَّرْتَ الأمورَ بمقاديرها ووزنْتَها بالميزان الإلهي الذي يُحيلُ الشر للمؤمنِ خيرًا، واستقرَّ في نفسك أن كلَّ شيءٍ بقدَرٍ، كانت نفسُك أكبرَ مِن أن تُحيطَ بها نازلةٌ، وإذا استيقَنْتَ أن الدينَ منصورٌ لا محالةَ وأن الله لم يرتَهِنْ بقاءَ الدين بفلان وفلان مِن حَمَلَتِه، وأنه كلما مات منهم طائفةٌ كانوا وَقُودًا لِمَنْ بعدَهم، هان عليك كلُّ مصابٍ يحِلُّ بأمَّتِك، وطابتْ نفسُكَ بقضاء الله والتجَأ قلبُك إليه، واستعَنْتَهُ على العمل لنصرة دينه وإقامته في الأرض كما أمر الله.



سؤال.. وجواب!

عن أنس أن رجلا سأل النبيَّ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟

كلُّنا مثلُ هذا الرجل، لا تنفكُّ أذهانُنا عن ابتكار الأسئلة وتَطَلُّبِ الأجوبة عنها، فإذا أردنا تحصيلَ الجواب عند مَن يعلمه قلَّبْنا في أذهاننا صوَرَ الأجوبة الممكنة عن هذا السؤال، وأنشأنا حواراتٍ مفترَضةً مبنية عليه.

كأني بهذا الرجلِ ينطلق عامدا إلى رسول الله ، قد شغَلَه سؤالُه هذا وأعضَلَه فلا يجد له جوابا، يتوقع من رسول الله إجابةً توازي سؤالَه هذا، من باب: الساعةُ يومَ كذا، أو سنة كذا، أو إذا كان كذا وكذا، ونحوها من الإجابات المباشرة الممكنة عن هذا الضرب من الأسئلة.

قال النبي : وماذا أعددت لها؟

يا لهذا الرد المباغت! أشعر أن الرجلَ تشتَّتَ ذهنُه لحظةً من الدهر وهو يسمع جوابا من غير بابة الأجوبة الكثيرة التي احتملها فكرُه، لكنه سرعان ما عاد له بيانُه، سرعةَ الحاجة إلى جواب هذا السؤال المفاجئ، استحضر سلسلةَ أعماله فلم يجدْ فيها شيئا يرتضي أن يقدمه جوابا بين يدي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، لم يجد في نفسه أوثقَ من شعورٍ قلبيٍّ صادقٍ ليس فيه مِرْيةٌ، ومحبةٍ متقدةٍ لا تطفئها رياح الدهر.

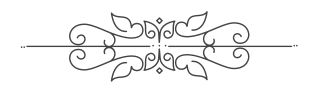
لا بد من أن هذا الرجلَ مسلمٌ، ولا بد من أنه يمارس أركان الإسلام وفرائضَه على أقل تقدير، ولا بد من أنه يحترز عن الكبائر والموبقات ابتداءً أو توبةً بعد إتيان، لكنه لم يرَ عند نفسه أرجى من هذا الشعور الآنفِ ذكرُه!

قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله.

فقال: أنت مع من أحببت!

كل الأجوبة التي تفتَّقَ عنها ذهنُ الرجل انخنَسَتْ عند هذا الجواب المدهش، رجلٌ خرج بمعضلةٍ وعاد ببشرى تقْصُر عن وصفها العباراتُ، انطفأتْ حرارة هذا السؤال الملحِّ في نفس هذا الرجل ببرْدِ الجواب الباهر وجمالِه، لا أدري عن صورة الحوار التي اصطنَعَها الرجلُ في خياله كما يفعل الناسُ كلهم، لكن الذي أكاد أعلمُه يقينا أن هذا الحوارَ القصير لم يكن في حسبانه، وأن هذا السؤال اندحرَ في جوفه فلم يعُدْ له ظهورٌ، وأن الجواب عنه كان أعظمَ من كل جوابٍ غيره حتى لو كان مباشرا.

ولا أكاد أمتري أن هذا الرجل عاد مفعماً بالفرح، ممتلئا بالسرور والبهجة، لو جُعلتْ له الدنيا وعشر أمثالها بلحظة من ذلك الفرح لرآها غبنا!



مشاعر صدق

من المقررات في نفوس المؤمنين أن محمدًا صلواتُ الله وسلامه عليه أصدَقُ الناس حديثًا وأصحُّهم شعورًا، لا يستريبُ لبيبٌ في مشاعرِه، ولا تشوبُ شائبةٌ قولَه الذي صِيغَ بالصدق وخُتِمَ بالحقِّ.

وتلك المواضع في سيرته الشريفة، التي يستبين فيها أثرُ صدقِ مشاعره على الناس والدنيا مِن حوله مما يشدُّ القارئَ ويأخذ بِلُبِّ المستمع.

فمما ورد في حديث غزوة أحد أنه لما رأى عمَّه حمزة بن عبد المطلب شهيدًا صريعًا ممَثَّلًا به، بكى حتى انتحَبَ، وقال: ما وقفتُ موقفًا أغْيَظَ عليَّ من هذا. وهذه الكلمة منه ما لم تُعَارَضْ بتطاوُل الزمان وتتابُعِ الأحداثِ فهي على ظاهرها وتدل على أنه فعلا لم يقفْ موقفا أغيظَ عليه من هذا.

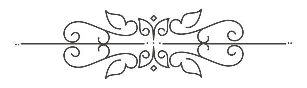
وبعدَ فتْحِ خيبرَ قَدِمَ مُهاجرو الحبشةِ إلى المدينة، فبَلَغَهُم منزلُ رسول الله بخيبر، فلحقوا به فلما رآهم فرِحَ فرحًا عظيمًا، والتَزَمَ ابنَ عمِّهِ جعفرَ بن أبي طالب وقال: ما أدري بأيِّهما أُسَرُّ، بفتْح خيبرَ أمْ بقدوم جعفر.. نعم، ففرحةُ قدوم جعفر بعد هذه الغَيْبَة الطويلة المريرةِ تعْدِلُ عندهُ فرحةَ الفتح المُبِين، وربما تطغى عليها.

ولَمَّا قدِم عليه زيدُ الخيل بن مهلهل الطائي، أُعجِبَ به وأعظمَهُ وقال له:

ما وُصِفَ لي رجلٌ قطُّ فرأيتُه إلا كان دون ما وُصف به، إلا أنتَ فإنك فوقَ ما قيل فيك.. وهذا الثناء العاطرُ لو خرج من رجلٍ ذي مكانةٍ وجاهٍ بين الناس لَكَان فخْرًا إلى مُنتهى الدهر، فكيف وهو ينطق به رسولُ الله ﷺ أصدَقُ الناسِ وأنطَقُهُم بالحقِّ طَوَالَ عُمره؟ وأي فخرٍ حاز زيدُ الخيرِ بهذا المديح الباهر؟

ولما سئل عليه الصلاة والسلام عن أَحَبِّ الناس إليه، بادر بالجوابِ من غير تردادٍ لفكرة ولا تقليبٍ نظر قائلا: عائشة.. وهذا الجوابُ منه يعني أن عائشةَ فعلا هي أحبُّ الناس إليه دون تردُّدٍ، إذِ اسمُها أولُ اسم بادَرَ ذهنَه حين سمِعَ السؤالَ، فلا مريةَ في ذلك الجواب العظيم وأنه حقٌّ ظاهرٌ.

وذاك بابٌ واسعٌ لَمَنْ تأَمَّلَهُ، ولا غرْوَ فإنَّ مَن نَشَّأه ربُّه تبارك وتعالى على خصال الخير منذ نعومة أظفاره وحازَ بين قومه لقبَ الصادق الأمين في زهرةِ شبابه لَهُوَ خليقٌ أن يكونَ أصدقَ الناس لهجةً وأعظمَهُمْ حسْبانًا لأمانةِ الكلمة التي تسري بها رياحُ الزمان لتَبْلُغَ بها أسماعَ كافَّةِ الناسِ مِن بعْدِه، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.



ميزان: خاطرةٌ في تعامل الإسلامِ مع نفسيات الصحابة

وقَع للصحابة الكرام رضي الله عنهم حوادثُ كثيرةٌ، ونزلتْ بهم أمورٌ عظيمة، كان لكلٍّ منها تأثيرُه على نفسياتهم ومعنوياتهم خلال العهد النبوي، حتى انقضى العهدُ الميمون المبارك.

كانوا بشرًا من البشر، وكان الإسلامُ غضا في قلوبهم، مخالفًا لما كان عليه قومُهم، فكان حتمًا أن يُلاقوا من صنوف البلاء ما لم يكونوا يحتسبون، ولولا اللهُ وتثبيتُه إياهم لاندثرَتْ أولُ زمرةٍ تدين ذلك الدينَ الجديدَ، ولم يكن لها أعظمُ شأن في تاريخ البشرِ كلهِم ممن سوى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام!

فكانت تضيق صدورُهم ويعزُب الصبرُ عنهم أحيانا: يا رسول الله ألا تدعو لنا؟ فيحدِّثهم عن أقوامٍ كانوا أشد منهم بلاءً فصبروا. وكان بعضُهم ينطق بما لا يعتقده من شدة البطش به، يقول ابن مسعود: فما منهم أحدٌ- يعني السبعة الذين جهروا بإسلامهم أولَ الأمر -إلا واتاهم على ما أرادوا. ويذكر ابنُ عباس أن الكفارَ كانوا يُجيعون الصحابةَ وينكِّلون بهم حتى لا يقدرُ أحدُهم أن يستويَ جالسا من شدة الضرِّ الذي نزل به، حتى كان الجُعل

يمرُّ أمامَه فيقولون: الجعلُ إلهُك من دون الله؟ فيقول: نعم! وقصة عمار بن ياسر مشهورة معلومة.

كان يبلغ إياسُ بعضِهم من بعض الأمور مبلغا عجيبا، قال عامر بن ربيعة: لا يُسلمُ عمرُ حتى يسلمَ حمارُ الخطَّاب! كانت الأمورُ بمكة شديدةً لا تقوم لها الجبالُ. حتى أن رسولَ الله نفسَه بث شكواه يوما، يكاد قارئُ القصة يستشعرُ شدةَ الأمر الذي نزل به حتى ألجأه لهذا الدعاء الذي فُتحتْ له أبوابُ السماء: اللهم إليك أشكو ضعفَ قوتي، وقلةَ حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهمني؟ أم إلى عدوٍّ ملَّكْته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضبٌ فلا أبالي، ولكنَّ عافيتَك هي أوسعُ لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تُنزل بي غضبَك، أو يحلَّ على سخطُك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

ماذا ترى جعل محمدا أكرمَ خلق الله على الله يلهج بهذا الكلام؟! ما الذي يجعله يستجير بالله من غضبه وحلول سخطه؟! هذا الدعاء الجليلُ وإن كان مغلفا بالصبرِ مبطنًا بالتسليم لله، فإنه يبَين كيف كان طريقُ الدعوة شديدَ الوعورة كثيرَ العقبات!

في العقبة، قال المسلمون الجددُ لرسول الله: إن شئتَ لنميلنَّ على أهل منى غدا بأسيافنا، فأمرهم بالكف والصبر، نفسياتُهم متحفزةٌ لكن المعايير الشرعيةَ أكبرُ من عواطف الناس.

في الهجرة، تواعد عمرُ بن الخطاب والعاص بن هشام وعياشُ بن أبي ربيعة مكانا، وقالوا: فمن تأخر فقد حُبس، فليمضِ صاحباه، فمضى عمر وعياش، وكان العاص قد حُبس، فلحق أبو جهل والحارثُ بن هشام بالركب، وأغريا عياشا بالرجوع فرجع، فأوثقاه وسارا به، فكان المسلمون يتحدثون أن الله لا يقبل ممن افتتن توبة، فضاق الأمر على العاص، حتى أنزل الله: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾، فبعث بها عمر إلى العاص، ففهمها العاص وفرجَ اللهُ عنه ما كان فيه.

في المدينة، انتقل البلاء إلى مرحلة أخرى وصورة مختلفة قليلا. انطلق عبد الله بن جحش وأصحابُه في سرِيةٍ بأوامرَ محددة، فتجاوزوا الأوامرَ، وكان ردُّ الفعل النبوي صدمةً نفسية لهم حتى نزل الوحيُ بالفرج. وقعتِ الغزواتُ والسرايا فكان الرجل يلقى أباه وأخاه وولده فيقاتلهم ويقاتلونه، سمع أبو حذيفة بن عتبة رسولَ الله ينهى عن قتْل العباس بن عبد المطلب، فتحرَّكتْ نفسُه إذ كان شهد أولَ النهار مقتلَ أبيه وأخيه وعمه على الكفر، فقال لنفسه: والله لئن لقيتُه لألحمَنَّه بالسيف!

في أُحد كانت الدولةُ للمشركين، فوقع للمسلمين من ألوان البلاء ما خلدته أقلام المؤرخين، والتأملُ في نفسياتهم يومئذ يبعث على التعجب.. همت طائفتان من المسلمين أن تفشلا، والله وليهما. أمرَ رسول الله الرماةَ بأمرٍ مطلقٍ، فلم تصبرْ نفوسُ أكثرهم على أمره فأخذتِ السيوفُ من أجسادهم

الكريمةِ مأخذَها وطاروا شهداءَ! شاع في الناس أن رسول الله قُتل، فقعدت طائفةٌ منهم عن القتال من شدة الحزن واليأس! كان رسول الله ينادي: من يأخذُ هذا السيفَ بحقه؟ فلا يقوم له أحدٌ حتى أخذه الزبير!

حتى رسولُ الله وقع له ما جعلَه يبكي وينشج، استُشهد الأسدُ حمزةُ بن عبد المطلب، فحزن عليه رسول الله حزنا كان أحدَ أشدِّ الأحزان في دهره. عندما أُديرتِ الدائرة على المسلمين، فرَّ بعضُهم حتى بلغ المدينة، وكان ممن فر: سيدٌ من ساداتهم وسابقيهم، عثمان بن عفان!

أُسدل ستارُ المعركة، ووضعتِ الحربُ أوزارها، والمتوقعُ أن صدمةَ المسلمين يومئذ بالهزيمة صدمةٌ منكرةٌ، فقد انتصروا قبل سنة فحسبُ، وهُمُ المسلمون وخصمُهم الكفارُ المعتدون، ﴿**أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ**﴾؟!، لكن لله سننًا لا بد من وقوعها، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

أمرَ رسولُ الله أصحابَه أن يستووا، حتى يثنيَ على ربه تبارك وتعالى! كان رسولُ الله يَزِن نفوسَهم بالدين القويم، استوَوْا وصفُّوا صفوفا، فأثنى رسول الله على ربه سبحانه وتعالى أحسن الثناء ودعاه أطيب دعاء، ثم ما هو إلا اليومُ وغَدٌ حتى انقلب المسلمون بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوانَ الله! كان قتلاهم شهداءَ وأحياؤهم في نعمة من الله!

ثم كانت بعثتان نبويتان لأسباب دعوية، فطار أهل البعثتين شهداءَ، إحداهما إلى الرجيع، والأخرى ببئر معونة، قُتلوا رحمهم الله غدرا كلُّهم أجمعين، فكان وقعُ الخبرِ على قلب النبي عظيما!

كلُّ حادثةٍ في حياة المسلمين كانت تصقل نفوسَهم وتقِيم نفسياتِهم أكثرَ مما قبلها. في أيام الخندق طلب رسولُ الله أن يتطوع أحدُ المسلمين بالإتيانِ بخبرِ المشركين، والمسلمون في جهدٍ وبلاء من شدة البرد وعصف الريح، فرغَّبهم بالجنة حتى يرغبوا، فلم يقم أحد! حتى اضطُر أن يعيِّن حذيفةَ بنَ اليمان للمهمة، يقول حذيفة: فلم أجد بدًّا من القيام حين دعاني باسمي! حتى تعلمَ شدةَ الأمر وصعوبتَه.

وفيها تألبَتِ العربُ بقضِّها وقضيضِها على المسلمين، ونقضتْ بنو قريظة العهدَ مع رسول الله ، فانظرْ كيف يصفُ ربنا جل جلاله شدةَ البلاء: ﴿ **إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا** ﴾. وانخذل أهلُ النفاق وما زالوا مخذولين مذ كانوا، وأَطمعَ رسولُ الله عيينةَ بن حصن في حصةٍ من ثمار المدينة على أن يرجع فقط ولا يقاتل! ثم كفى الله بقدرتِه عبادَه القتالَ، وردَّ أعداءهُ بغيظهم، وسلط رسولَه على بني قريظة فريقا يَقتل وفريقا يأسر، وانفرج البلاءُ عن نعمٍ عظمى كان من أعظمها بشارةٌ نبويةٌ جليلة: لا تغزونا قريش بعدها! سوى أمورٍ كثيرة في

تلك الغزاة من إطعام المسلمين من طعام قليلٍ فيشبعون منه، أكثر من مرة، ثم البشائر النبوية بالفتوحِ، فلما فتح الله على المسلمين البلاد بعد ذلك، قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله!

بعدئذ وقعتْ قصةُ الإفك، وكانت واللهِ بلاءً مبينا، الناسُ يخوضون في الأمر، حتى زلَّ فيه بعضُ الصحابة الكرام، حسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، ومسطح بن أثاثة الذي كان ينفق عليه أبو بكر! وعائشةُ مريضة لا تدري بكل ذلك، وكانت تنكر غيابَ اللطف النبوي بها، حتى كانت الفاجعةُ وعلمَتْ بالخبر، فبكتْ يوما وليلتين لا يرقأُ لها دمعٌ ولا تكتحل بنوم، فلما دخل عليها رسولُ الله وتكلم بكلامه، استمسك الدمع من شدة الذهول إذ كان رسول الله فيما ترى مصدقا لما انتشر عنها، فسألتْ أمَّها وأباها أن يجيبا رسولَ الله، فلم يَحْرِيا جوابا، فتكلمتْ بكلامٍ بليغ مفعمٍ بالشعور بالظلم مع العجز عن رده – الظلمُ هنا الإفك الذي انتشر عنها –، فلم تلبثْ حتى نزل الوحي بأعظم البشائر، فقالت أمها : قومي إلى رسول الله، فقالت : واللهِ لا أقوم إليه ولا أحمدُ إلا اللهَ ! يا لشدة ذلك الأمر على قلبِ فتاةٍ ابنة ثلاثة عشر ربيعا أو نحوها، هي أحبُّ الناس إلى زوجها العظيم صلوات الله وسلامه عليه! فامتنع أبو بكر من النفقة على مسطح، حتى جاء الوحي يزيل هذه الشائبة من حظ النفس –التي لو كانت لغيره لَحَقَّتْ له، لكنه أبو بكر! – ويجري ذلك النهر الفياض بالنفقة والسخاء على ما كان من عهده!

ثم كانت غزوة الحديبية، وما أدراك ما الحديبية! خرج عثمان بنُ عفان إلى مكة لطلب الفسح للمسلمين ليدخلوها معتمرين، فرفضوا ذلك، وتناهى إلى المسلمين أنه قُتل، فأمر النبي بالبيعة المباركة، ثم خرجتْ رسلُ قريش رجلا بعد رجل، حتى كان آخرَهم سهيلُ بن عمرو، ومعه كانت الهدنةُ التي كاد المسلمون يموتون منها غما!

شروطٌ استنكرها المسلمون فقد كانوا يرجون أن يكونوا هم الأعلَيْن، لا يريدون أن يُعطَوُا الدنيةَ في دينهم، حتى كان منهم عمرُ بن الخطاب السيد الكريم المحدَّث الملهَم! ثم لم ينقضِ الكتابُ حتى خرج أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، فاشترط سهيل بن عمرو أن هذا أولُ مَن تطبَّق عليه الشروطُ وإلا فلا صلح! فوفى له النبي بشرطه، فازداد المسلمون غما إلى غمهم الذي هو أصلا شديد، وكاد عمر يخرج عن صوابه لولا أن ثبته اللهُ برسول الله وبأبي بكر، حتى أن المسلمين امتنعوا عن الحلْق إذ أمرَهم رسولُ الله ، فغضب فأشارتْ عليه المرأة العاقلة أم سلمة بأمر حسن، فلما حلق بعضُهم لبعض كادوا يقتلون بعضهم غما.

ثم ماذا؟ ثم إنه في الطريق أُنزلتْ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾! وأي فتح أعظم ؟! أما أولُ بركاته فالبيعةُ التي رضي اللهُ عن أهلها المباركين، ثم ما كان بعد ذلك من فتح خيبر وفدك وغيرها، وبلوغ المسلمين المقاتلينَ عشرةَ آلاف نفس في سنتين فقط، بينما كانت حصيلة الدعوة في تسع عشرة سنة = ألفا

وستمئة نفس على أكثرِ تقدير هم أهلُ البيعة، ثم أهلوهم الذين في المدينة، والمستضعفون بمكة، الذين كان الفرج أقربَ إليهم من الأرض التي تحت أقدامهم، على يد الرجل المبارك أبي بصير، الذي به انتقض شرطٌ جائرٌ من شروط البيعة، ثم أم كلثوم بنت عقبة، التي خرجتْ مهاجرة ونزل بسببها أحكامٌ عظيمة من أحكام الإسلام، ثم خروج خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة مسلمين غير مكرهين ولا مغلوبين، بل طائعين مختارين، وكان لهم عظيمُ القَدم في الإسلام !

وكانت غزوة خيبر! قُتل فيها عامر بن الأكوع، ضرب نفسَه بالسيف خطأً فمات، فأرجف الناسُ بسلمة بن الأكوع حتى حزن، ثم سأل رسولَ الله عنه فقال: إن له لأجرَيْن! فسُري عنه. ولما فُتحت خيبر، قال المسلمون: الآن نشبع من التمر! أترى ما الذي كان يفرح المسلمين يومئذ ؟! أتبصر الجهد الجهيد الذي كانوا فيه قبلئذ ؟!

ثم كانت موقعة مؤتة، أولُ مواجهة بين المسلمين والروم، فكانت كفةُ الميزان العددي راجحةً لصالح الكفار بأضعاف ما هي للمسلمين، فزُلزلتْ بعضُ النفوس ودخلها الخوفُ واشتَوَروا لطلب المدد من رسول الله، فنشطهم عبدُ الله بن رواحة بكلمات خالدات، لكن الشيطان لم يكن لِيَدعَ هذا الرجلَ الصالح نفسَه من شيء يحتال به عليه، فزَين له الدنيا يريده أن يرجع عن القتال، فتردد ابنُ رواحة ثم أقدمَ وهو يرتجز أراجيز مشتهرة، ثم لحق بأخويه: زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، إلى جنات الخلد!

وجعفر كان في الحبشة سنين عددا، فما رجع إلا مع فتح خيبر، ثم انطلق غازيا إلى مؤتة، فكان بين رجوعه وبين استشهاده نحوٌ من سنة، فحزن عليه رسول الله ، وعلى زيد بن حارثة -حِبُّ رسول الله -حزنا شديدا، تروى له فيه قصصٌ مبكية.

ثم سار الزمان سَيرَه، وفتح الله على المسلمين مكة وحنينا والطائف، ثم مضى الدهر حتى كانت غزوة تبوك، وكانت في زمانٍ شديد الحر، طابت فيه الظلالُ والثمارُ، وأحبَّ الناسُ القعود والراحةَ، فكان الجهاد وقتها مستثقلا، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، فانطلق الناس يتجهزون ويستعدون للخروج، وبقي نفرٌ قليل لم يخرجوا، تزينت لهم الدنيا فقعدوا وهم يمنُّون أنفسهم بالخروج حتى ذهب الزمانُ ومضى الناس، فلما انتهى الغزو ذهب كلُّ صاحبِ عذرٍ بعذره، وذهب هؤلاء بصدقهم وإيمانهم ليس لهم غيرُه، فكان للصدق مرارةٌ أولَ الأمر، أربعين يوما لا يكلمهم أحدٌ ولا يجلس إليهم رجلٌ، ثم عشرةَ أيام يمتنع أزواجُهم منهم، حتى ضاقت عليهم الأرضُ بما رحبتْ وضاقت عليهم أنفسهم، ثم أنزل الله توبته وكشف عنهم الغم والكربَ، وفرح بهم المسلمون فرحا عظيما، وظهرت حلاوةُ صدقهم وإن كانت ثمرتُه مريرةً في أولها !

ثم دخل الناس في دين الله أفواجا، ودانوا بالحق الذي لا ريب فيه، ثم انطلق رسول الله حاجًّا، وتبعَه الناسُ يلتمسون الاقتداء به، فحج بهم وعلمهم مناسكَهم وخطب فيهم خطبا عظيمة جليلة شاملة عامة فيها من كلِّ أمرٍ حسنٍ، ثم أنزل الله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

أرأيت متى أُنزلتْ هذه الآيةُ؟ بعد أكثر من عشرين سنة كان البلاءُ فيها لا يحصى كثرةً ولا يطاق شدةً، ذاق المسلمون في تلك المدة من صنوف الابتلاء ولاقَوْا من صور الامتحان ما كان خليقا بغيرهم أن يترك دينَه لأقلِّ ذلك، أو أن يتماهى في صورٍ من الكفر والنفاق يجد فيها فسحةً من أمره، وكان كما قال الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾، وكما قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

وقال جل في علاه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وتكالب الناسُ عليهم ما بين مكذِّبٍ بدينهم، ومحاربٍ لهم، وطامعٍ في القليل من الدنيا الذي بين أيديهم، ومُرجفٍ بهم، ومندَسٍّ في صفوفهم وهو عدوٌّ لهم، ووقع لهم ما يقع من المصائب التي تقع لكل الناس، قال

الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾، وقال جل جلاله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ﴾، وأنزل في سورة التوبة من فضيحة المنافقين المخذولين ما كان حقيقا أن يفغر المؤمنُ فاه دهشةً له، ثم كان ماذا؟!

ذهب ذلك الأمرُ كلُّه، وأكمل الله دينَه وأتم نعمتَه، وما كان من شدةٍ إلا أعقبها فرجٌ، وما كان عسرٌ إلا معه يُسران، وحفظ اللهُ على القوم دينَهم، وحفظ بهم دينَه وشرعتَه، واستخلفَهم في الأرض ومكَّن لهم وأبدلهم من بعد خوفهم أمنا، واتَّزنتْ نفسياتُهم التي طالما قلَّبتْها صروفُ الزمان ومكايدُ الشيطان، وصاروا كالشُّمِّ الرواسي لا تهزُّهم الرياحُ ولا تحطمهم الدنيا بقرونها، ورفع اللهُ ذكْرَهم في الدنيا وفي الآخرة، ورضي عنهم وأرضاهم، ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾!



حكاية الهجرة

ومضة

قال سهلُ بن سعدٍ، وهو يذكرُ مستنَدَهم في وضْع التاريخِ: ما عدُّوا من مبعثِ النبيِّ، ولا من وفاتِه، ما عدُّوا إلا من هجرتِه.

الهجرة: تاريخٌ ومستقبل

قال المقدادُ بن عمرو في غضبةٍ من غضباتِه: لقد بُعِث النبي على أشدِّ حالٍ بُعث عليها نبيٌّ قطُّ، في فترةٍ وجاهليةٍ، ما يرون أن دينًا أفضلُ من عبادة الأوثانِ.

حتى بقايا الحنيفيةِ ومكارمُ الأخلاقِ التي كانت فيهم، دخلَها من العصبيَّةِ وحميَّةِ الجاهليَّة ما شانَها وأفسدَ ثمرتَها، بل إن أوضحَ معالمِ الدينِ في زمانِهم، وهو الحجُّ، مسَّهُ من العبثِ والتحريفِ ما جعلَه مناسبةً طبقيَّةً، الناسُ فيها إمَّا "حُمْسٌ"، يطوفون بالبيتِ عليهم لباسُهم، ولا يقفونَ بعرفَةَ مع الناس، ونحو ذلك من الشعائرِ المبتدَعةِ، وإما مَن سوى هؤلاءِ، الذين تلاعبَ بهم الحمْسُ حتى كان منهم مَن يطوفُ بالبيتِ عريانًا!

هذا غيرُ ما اخترعوهُ من الأمورِ التي يعتقدونَها دينًا، وينسبونَها زورًا وكذبًا إلى أمرِ الله، وما انتقلَ عن غرضِه الدينيِّ إلى أن صار موضعًا للتفاخُر

والتنافُسِ حميَّةً ورياءً. تلك الحميَّةِ هي التي جعلَت أبا جهلٍ يظنُّ أن استعلانَ محمدٍ بالنبوةِ هو من هذا الشرفِ الدنيويِّ الذي ادَّعتْه بنو عبدِ مناف، بعد أن تجاثتْ هيَ وبنو مخزومٍ على الرُّكَب، وكانا كَفَرَسَيْ رهانٍ.

كان سيدُنا محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه، منذُ نشأتِه الأولى حتى بلغَ أشدَّه، محفوفًا برعايةِ الله، مفطورًا على الخيرِ، محلًّى بجميل الخصالِ وكريم الشمائلِ، راجحَ العقلِ ذكيَّ القلبِ، صادقَ اللهجةِ عفيفَ الجوارحِ، لا يعتدُّ عليه أحدٌ من قومِه ومن غيرهم فضلًا ونُبلًا ونقاءً، وإن منهم لَساداتٍ وكُبراءَ وأشرافًا، حتى أنهم خلعوا عليه حليةً زاهيةً عُرِف بها بينهم، حين سمَّوْه: الصادق الأمين. ومَنْ تأمَّل، علمَ أن هاتين الخصلتيْنِ من جماعِ الخيرِ في الإنسانِ.

فلمَّا بعثَه اللهُ جلَّ في علاه بالنورِ المبينِ، بعد أن أسدلَ الكُفرُ والطغيانُ ستارَهما على القلوبِ، تنكَّرَ له كثيرٌ من قومِه، وشنِفوا له وعادَوْهُ، ورموْه عن قوسٍ واحدةٍ، ونالَهُ وأصحابَه ممن قبِلَتْ نفوسُهم ذلكَ النورَ السماويَّ مِن البلاءِ والضُّرِّ ما نالهم، من أولئك الذين كانتْ نوافذُ قلوبِهم موصدةً دونَ الحقِّ، وعقولُهم مسلَسَةَ القيادِ لكلِّ خرافةٍ وباطلٍ ورثوهُ عن آبائهم، وزينَتْه الشياطينُ لهم.

فكان رسولُ اللهِ رابطَ الجأشِ، ثابتَ القدمِ، واثقَ الخطْوِ في سبيلِ الدعوةِ إلى اللهِ وإلى دينِه، "قدْ قبِلَه بقَبولِه، وتحمَّلَ منه ما تحمَّل، على رضى العبادِ

وسخطِهم». وإذا ضاقَ صدرُه يومًا، خفَّفَ الله عنه بشيءٍ من الوحي، يثبتُه به ويذكِّرُه أن هذه سبيلُ المرسلينَ قبلَه، وأن عليهِ أن يبلِّغَ، وليس له سلطانٌ على قلوبِ الناسِ، أو بآيةٍ باهرةٍ يرى فيها قدرةَ المولى عزَّ وجلَّ، ويطمئنُّ أنه نبيٌّ مرسَلٌ له مكانتُه ووجاهتُه عند ربِّه، أو بكلمةٍ حانيةٍ من زوجِهِ الوفيَّةِ المؤمنة خديجة بنت خويلد، التي كانت تعطفُ عليهِ وتشدُّ من أزرِه، وتعينُه بما تقدرُ عليه، أو بوقوفِ عمِّه أبي طالبٍ معه ذائدًا عنه ما استطاعَ، أو بأصحابِه الذين يفدُونَه بكلِّ ما يملكونَ.

وكان قومُهم يسومونَهم سوءَ العذابِ، ويُنزلون بهم صنوفَ النكالِ أن قالوا: ربُّنا الله، فكان منهم مَن يذهب إلى رسولِ اللهِ شاكيًا، فيُبشِّرُه بأن العاقبةَ لهذا الدينِ. فلمَّا ضاقَ بهم الحالُ، واشتدَّ عليهم قومُهم، أذنَ لهم رسولُ الله بالهجرةِ إلى حيثُ يجدونَ أمْنًا على أنفسهم، وسعَةً في ممارسةِ شعائرِ دينِهم، الذي لا يدعو إلا إلى مكرُمة، ولا يمنع إلا مما هو سفاهةٌ في الدينِ والفطرةِ والعقلِ، لو كان أولئكَ يعقلون!

وما زال الأمرُ يشتدُّ ويزدادُ ضيقًا وعنتًا، حتى وجدَ أبو بكرٍ الصديقُ نفسَه خارجًا يريد الهجرةَ، وهو الذي كان مألِفًا لقومه محبَّبًا لهم، لكنهم حرموهُ أدنى حقوقِه، أن يعبدَ الله كما يريد، وحتى خرجَ النبي يطلبُ متنفَّسًا لدعوتِه، التي ضاقَ الخناقُ عليها في مهدها، فلما لم يجدْ طُلبَتَه، عاد ليدخلَ إلى موطنِه في جوارِ رجلٍ من الناس، وحتى حُصرَ المسلمون في شِعب بني هاشمٍ،

حصارًا ظالمًا جائرًا، فبلغَ الظلمُ ذروتَه، وأصبحَ وجهُ الدنيا كالحًا قاتمًا، حتى جاء ذلك اليومُ، الذي ألقتْ فيهِ يثربُ جذوةً من النورِ، فاحتضنَتْها العقبةُ الكبرى، لتكون منبعَثًا للفجرِ الجديدِ، الذي سيغمرُ العالَمَ ضياهُ يومًا .

ستةُ رجالٍ قدموا يلتمسون حلفًا من قريشٍ على بني عمومتِهم، وقد أكلتْهم الحروبُ وأفنَتْ سُراتِهِم وملأَهم، فعادوا بِما هو خيرٌ لهم من الدنيا وما فيها: الإسلام في قلوبهم، والنور في أيمانِهم، ثم انطلقَ مصعب بنُ عميرٍ، يعلمهم القرآنَ وما شُرع من الفقهِ، ثم ما زالَ النورُ ينسلُّ إلى قلوبِ أهلِ يثربَ، ويمحو ما فيها من الظلمةِ والجاهلية، حتى أصبحتْ قلوبُهم مأرزًا للإيمانِ، وغدت طيبَةُ أرضًا مباركةً، وتربةً خصبةً تقبلُ الوحيَ وتهتزُّ لهُ فرحًا وحبًّا، فتُنبِتُ أحلى الثمارِ وأنضرَها مرأى وأشهاها لذةً.

فحينئذٍ أوجبَ اللهُ على المسلمينَ الهجرةَ وأمرَهم بها، فانطلقوا مهاجرينَ بدينهم إلى اللهِ، فارِّين من بطشِ الكفار وجبروتِهم، وبقيَ رسول الله ماضيًا في سبيلِه، متشوِّفًا للإذنِ الإلهي بالهجرةِ، حتى جاءَتِ اللحظةُ التي سيتغيَّرُ بعدها وجهُ الدهرِ إلى الأبد. فأخبرَ أبا بكرٍ بأمرِ الله، واستصحبَه في طريقِه، وكانَ معهما عامرُ بن فهيرةَ مولى الصدِّيق، فلجَآ إلى غارِ ثورٍ، وهو فتحةٌ في جبلٍ يقعُ جنوبَ مكةَ، ليس له شأنٌ يُذكَر، فلما كان حرزًا لرسولِ الله وصاحبِه الصدِّيق، وأمانًا لهما من الطلبِ بحفظِ الله ومعيَّتِه لهما، خلدَ اللهُ ذكرَه في كتابِه المجيدِ، فهو يُذكَر في القرآنِ حتى يرفعَ اللهُ كتابه من الأرضِ!

ثم انطلقَا في رحلةٍ مباركةٍ، يرعاهما الله سبحانه وتعالى بعينِه ويكلؤهما بحفظه، وهُما بين أعينٍ تطلبُهما للقتلِ والتنكيلِ بهما، وبين أنفسٍ تعدُّ الأيامَ والليالِيَ انتظارًا لمقدمِهما، وخرجَ معهما دليلًا رجلٌ كافرٌ دينًا، لكنه خبيرٌ بالطريقِ.

وصل الركْبُ الأسمى في التاريخ إلى الديارِ المباركةِ، فاستقبلَهم أهلُها مستبشرين فرحينَ، واحتفلوا بهما أيَّ احتفالٍ، كلٌّ يعرضُ عليهما المنزلَ والخدمةَ، وكلٌّ يودُّ لو يحملُهما في عينيْه، فنزلا أولَ الأمرِ في قباءٍ، وبنوا مسجدَها، ثم انطلقَ النبي حتى استقرتْ به راحلتُه في موضِع المسجدِ النبوي، ونزلَ عند أبي أيوب الأنصاري، لتبدأَ قصةٌ كلُّها عجبٌ ودهشةٌ.

كانت الهجرةُ انقلابًا جارفًا على الأوضاعِ البائسةِ في مكةَ، وانتقالا نوعيًّا في حياةِ المسلمينِ ودعوتِهم الخالدة، القومُ الذين طالما مُنعوا من الجهرِ بالصلواتِ في بيوتِهم، همُ اليومَ يرفعونَ بيوتًا يجاهرون فيها بصلاتِهم، وينعمونَ بوارفِ الأمنِ على دينهم وأرواحهم. القوم الذين تألَّبَ عليهم أهلُهم وعشيرتُهم، وأذاقوهم ألوانَ التعذيبِ، هم الآن بينَ أذرُعٍ رحبةٍ، وصدورٍ حانيةٍ، وبيوتٍ لطيفةٍ، وأخلاقٍ رفيعة. القومُ الذين كان الواحدُ منهم تمنعُه أمُّه الطعامَ والشرابَ، أصبحتْ لهم الآن حريةٌ، ودولةٌ وسلطانٌ، وقوةٌ ومنَعةٌ، وصاروا يعقدونَ المعاهداتِ ويبنونَ الأواصرِ، ويقومونَ بواجبِ الدعوةِ ونصرتِها غيرَ عابئينَ بِمن خالفهم وعاداهم.

حتى خطابُ الوحي ونمطُ التشريعِ تغيَّرَ بصورةٍ ما، فالشرائع المجمَلةُ فُصِّلتْ، والقبلةُ حُوِّلت، والصيامُ وزكاة الفطر والأنصبةِ فُرضَت، والخطابُ توجه إلى المؤمنين تشريعًا وتنبيها، وتوجيها لهم إلى الفضائل والكمالات، وإلى أهل الكتاب توبيخًا وتقريعا، وأمرا لهم بالتزامِ ما في كتُبهم من الإيمان بالنبي المعلومِ عندهم، ثم إلى المنافقينَ فضحًا وإشهارًا وتحذيرًا للمؤمنينَ منهم، بعد أَن كان كثيرٌ منه موجها إلى كفارِ مكةَ دعوةً وتبيانًا وتعريةً لِكفرهم وضلالِهم.

والجهادُ أصبحَ فرضًا محتومًا، بعد أن كان المسلمونَ مأمورينَ بالكفِّ والإمساكِ، فصاروا ذوي دولةٍ وقوةٍ، وبدأتِ السرايا تُرسَل والألويةُ تُعقَدُ، وقامتِ المعاركُ الكبرى الخوالدُ، وكان المسلمونَ يُنصرون يومًا، ويُدالُ عليهم آخرَ، حتى كانت هدنةُ الحديبيةِ، التي كانت قلبًا لِموازينِ القوى، فالمسلمونَ في دعةٍ، وساحةُ القتالِ تغيرَتْ لتصبحَ مكةُ في الهامشِ مقابلَ أهلِ الكتابِ في خيبرَ ثم مؤتةَ، والإسلامُ يأخذُ مواضعَه في القلوبِ، والكفرُ ينحسرُ شيئًا فشيئا، والرسولُ يبعثُ الكتبَ إلى الملوكِ يدعوهم إلى دينِه، بعد ما كانوا هم الحاكمينَ على البلادِ بسلطانِهم ودياناتهم. حتى كان الفتحُ الأعظمُ، وما بعدَه من مغازٍ، ثم انطلقَ المسلمونَ إلى تبوك، ثم أقبلَ الناسُ إلى الدين أفواجًا.

ثم كانت حجةُ الوداعِ، إحدى أعظمِ تمثُّلاتِ التحوِّلِ في التاريخ وحياةِ أهل جزيرةِ العرب واعتقاداتهم في العهدِ النبوي، إن لم تكنِ العظمى، فكثيرٌ

منهم من تلك القبائلِ أصبحوا في ركابِهِ حجاجًّا مقتدين بمناسكِه، مهتدينَ بِهَديه، متبعين شريعَتَه، فحينئذٍ تتامَّ الدينُ واكتملتِ

النعمةُ الكبرى، وعادتِ الجزيرةُ منارةَ هدًى ومشعلَ نورٍ تُضاءُ به الدنيا، بعدَ أن غرِقتْ في لُجَج الكفر والشرك عقودًا طويلة من الزمانِ، وانتشرَ ذلكَ النورُ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها على امتدادِ الدهورِ المتطاولةِ.

وما ذاك إلا من آثارِ الهجرة المباركة، التي خرجَ بها المسلمونَ من الضعفِ والإذلال إلى المَنَعة والشوكة، والتي فُرض في أعقابِها الجهادُ العظيمُ، بمطالبه وأخلاقِه العاليةِ، وغاياتِه وأهدافِه الساميةِ، وما استتبَعَه من رخصةِ اللهِ في أمورٍ بقيتْ منفعتُها إلى يومِ الناسِ هذا. وكان من ثمراتِها الشريفة الدخولُ في وَلاية اللهِ وولاية المؤمنين، وعِظَمُ أجرِ المهاجرينَ، وأمنُهم على دينهم وحياتهم وكرامتِهم، وحصولُ الأجرِ لهم حتى لمن ماتَ أثناءَ هجرته، بل لو لم يكنْ من عظمتِها إلا أن رسول الله دعا لأصحابه قائلا: اللهم أمضِ لأصحابي هجرتَهم ولا تردَّهم على أعقابهم، وقال عن رجل من أصحابه: البائس، لأنه عاد إلى مكةَ بعد هجرته فمات بها، لكفى بذلك مكانةً للهجرة!

ومن يقرأِ التاريخَ يجدْ أن الهجرةَ منذُ انطلاقها في عصرِ النبوة، وبامتداد الأزمانِ، كانت من أظهرِ الأسبابِ التي تغيَّرَ بها وجهُ العالمِ، وأن مَن قدرِ على مغالبةِ حبه لوطنه والهجرةِ منه لتحصيلِ ما هو أنفعُ له في دينِه ودنياه، ونفعِ الناسِ بما عندهُ من علمٍ ودعوةٍ وموهبةٍ وفكرٍ، والاستفادةِ منهم في الخيرِ،

بنيةٍ صادقةٍ وعزيمةٍ قوية، فهُو قادرٌ على أن يقلبَ الموازينَ ويَبهرَ العقولَ بِمنجَزاتِه وإسهامِه في نهضةِ أمته ودأبِه في تحريكِ عجلةِ الحياةِ.

لفتة

أمنٌ في غربةٍ، خيرٌ من مهانةٍ في وطنٍ. وكلُّ أرضٍ تجد فيها الطمأنينةَ والكرامةَ فهي الوطنُ.

خاتمة

«لا تنقطعُ الهجرةُ حتى تنقطعَ التوبةُ، ولا تنقطعُ التوبةُ حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها».



هدايات آية

قال اللهُ سبحانه في كتابِه المجيد: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وذُكِر في قوله «أمة» أقوالٌ، مؤدَّاها أن الخليلَ عليه السلامُ إمامٌ يُقتدى به، ومعلمٌ للناس الخيرَ، وأنهُ أمَّةٌ وحْدَه. حاوِل أن تتأمَّل هذه المعانيَ فيما بينَ يدَيْك من سيرتِه وأخبارِه عليه السلام.

فهُوَ إمامٌ في السبْقِ إلى اللهِ جل جلاله. قال له ربُّه: أسلِمْ، قالَ: أسلمْتُ لِرب العالمين. ابتلاه ربُّه بِكلماتٍ فَأتمَّهن، أسكَنَ زوجَه وابنَه بِوادٍ غيرِ ذي زرعٍ، امتثالًا لِما أمرَه اللهُ، فلم يُضيِّعْه اللهُ. رأى أنه يَذبح ابنَهُ ووحيدَهُ في ذلك الوقتِ، فصدَّقَ الرؤيا، فجُزِيَ جزاءَ المحسنين، وَمُدح بالإحسانِ في سياقٍ واحدٍ مرتين، وكان حنيفا مسلما، ولمْ يكُ من المشركينَ. وهُو الوحيدُ الممدوحُ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ بأنهُ ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، والنبيُّ الفذُّ الذي نَوَّهَ اللهُ بكونِهِ {وفى} ما أُمِر به.

وهو إمامٌ في التوكُّلِ واليقين. صدَعَ بالحقِّ في وجهِ طغاةِ الكفرِ وعتاوِلتِه، وفيهم أبوهُ، وأُلقيَ في النارِ، وهي أشدُّ ما ينالُ إنسانًا من العذابِ، فكانت عليه بردًا وسلامًا، وترَقَّى في معارجِ الإيمانِ واليقينِ حتى أجرى اللهُ على يديْهِ

حادثةً يُبصرُ فيها بِعَينِه إحياءَ الموتى، تطمينًا لِقلبِه، وانتقالًا به من علمِ اليقينِ إلى عينِ اليقينِ.

وهُو إمامٌ في ظهورِ الحجَّة وإفحامِ الخصومِ من أهلِ الكفرِ والعنادِ بالبراهينِ الواضحةِ. عرَّفَ قومَهُ ما هم فيه من الضلالِ وقلةِ العقلِ بالأدلةِ المحسوسةِ والعقليةِ، معَ ما أتى بهِ من الشريعةِ الحقَّةِ، ولمَّا حاجَجَهُ النمرودُ، لم يحتَجِ الخليلُ في دحْرِ حُجَّتِه ودحضِ قولِه إلى أكثرَ مِن سؤالِه أن يأتيَ بالشمسِ من المغربِ، فبُهِت الذي كفرَ. ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

وهو أيضًا إمامٌ في رقةِ القلبِ ولِين الجانبِ. مُدِح في القرآن بالحِلْم، وهو أقلُّ ما مُدِح به نبيٌّ، فكيف بغيرِهِمْ؟ فهو يدعو أباه بكلِّ رحمةٍ ولطفٍ وعطفٍ، مع ما واجهَهُ به أبوهُ من النزقِ، وهو يجادلُ ملائكةَ الرحمنِ جلَّ في علاهُ في قوم لوطٍ، وفي هذا المقام تحديدًا أُثني عليه بأنه ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾. وكان أشدَّ ما خُوطبَ به فيما قَصَّ اللهُ علينا في الكتابِ قولُهُ سبحانَه: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾!

وهُو معلِّمٌ ناصحٌ. يُعلِّم بَنِيه الخيرَ، ويحضُّهم على الاستمساكِ بما اصطفاهُ اللهُ لهم مِن الدينِ حتى يُدركهم الموت. بل إن هذه الأمةَ خُصَّتْ بحديثٍ مُسنَدٍ بالسماعِ المباشرِ منه عليه السلام، يأمرُ نبيَّنا أن يُقرئهُم السلامَ، ويخبرَهم أن الجنةَ قِيعانٌ، وأنها طيِّبةُ التربةِ، وأن غِراسَها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وهو أمَّةٌ وحدَه في الخير. تفصيلاتُ حياتِه الدقيقةُ دروسٌ بليغةٌ، قالَ خالدُ بن معدانَ: كان إبراهيمُ الخليلُ عليه السلامُ يأكل العنبَ حبةً حبةً، ويذكرُ اللهَ على كلِّ حبَّةٍ. وكان النبيُّ ﷺ يُعوِّذُ الحسنَ والحسينَ بدعواتٍ معروفةٍ، ويقول: إن إبراهيمَ كان يُعوِّذُ بها ولدَيْه إسماعيلَ وإسحاقَ.

وبالجملةِ، فكيف ما نظرتَ إليه، وقلَّبْتَ فكرَكَ في سيرتِه، بَهَرَك كمالُ أمره وتمامُ أحوالِه، وحسبُكَ أنَّ نبيَّنا محمدًا صلواتُ الله وسلامُه عليه، وهُو خليلُ اللهِ سبحانَه كما أنَّ إبراهيمَ خليلُ اللهِ، أُمِرَ بالاقتداءِ بهِ واتِّباعِ ملَّته، صلواتُ الله وسلامُه عليهِ، وعلى نبيِّنا وسيدنا محمدٍ، وعلى سائر النبيِّينَ والمُرسَلين.



في ذكرى الفتّح المجيدِ: المسيرة والحصاد

الأرض المقدسة:

منذ بزَغَ فجر العالم وهذه البقعة محفوفة بالحياطة والرعاية، مصونة بالحرمة التي حباها الله يوم خلق السماوات والأرض، مخصوصة بالمكانة الرفيعة السامقة، ذكر ابن هشام عن ابن إسحاق أنه قال: وحُدثْتُ أن قريشا وجدوا في الركن كتابا بالسريانية، فلم يدروا ما هو حتى قرأه لهم رجلٌ من يهود، فإذا هو: أنا الله ذو بكة، خلقتها يوم خلقت السموات والأرضَ وصورتُ الشمسَ والقمرَ، وحففتُها بسبعةِ أملاكٍ حنفاء، لا تزولُ حتى يزولَ أخشَباها.

وما زال الناس في الدهور المتعاقبة يعرفون لهذه البلدة حرمتها ومنزلتها، ويعظمونها ويقدسونها، منذ تلك اللحظة التي لامستْ خطواتُ إبراهيم الخليل عليه السلام ثراها، وهي وادٍ غيرُ ذي زرعٍ، جرداءُ قاحلةٌ، وأسلَمَ هاجرَ وابنها إسماعيلُ عليهما السلامُ لأمر ربهم تبارك وتعالى، وأرسلَ دعواتٍ من صميم قلبه على أجنحة الضراعة والإخباتِ، محلِّقةً صوبَ العرشِ، لتنتشرَ منها البركات والخيرات على أهل هذه الأرض من لدُنْ ذلك اليومِ إلى ما شاء اللهُ، منذ انبعثَ الماءُ من تحت قدم ذلك الطفل النقي، مرورًا بوقتِ شبَّ وأخذ يعاون أباه عليهما السلام لبناءِ البيتِ العتيقِ، فالتأذين في الناسِ بالحجِّ، إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها.

وضربَ الدهرُ ضَرْبَهُ، وتعاقبَ العربُ على خدمة هذا البيت المعظَّم، بألوانِ الخدمة والرعاية، وهم على دينِ أبيهم إبراهيم، حنفاءُ مسلمون، حتى بدأ الشيطان يبيضُ فيهم ويفرِّخُ، فاستحلَّتْ جرهمُ حرمة البيت حتى وصل بهم إلى الفجورِ الصريحِ، فقاتلتْهمْ خزاعةُ وأجلوهم عن البيت، وتولوا حكمه، وكان سيدهم عمرو بن لحي، مطاعًا فيهم معظَّمًا عندهم، ولكن استزلَّهُ الشيطانُ فغيَّرَ ما كان عليه العربُ من الدين، وجاءهم بعبادةٍ لا تقرها الشرائع ولا العقول السليمة، وانساقوا وراءهُ لشدةِ تعظيمهم إياه، وافترضَ فرائض ليست من الحنيفية في شيء، فكان فعلُه خزيًا له يوم يقوم الأشهاد!

وبقي شؤمُ هذا المذمومِ يتناسلُ في الناس، حتى اندرستْ معالمُ الحنيفية، وعَفَتْ آثارُها، وتنكَّرَ الناس لها، إلا قليلا منهم، ولكنْ بقيَتْ منها أشياءُ قليلة، منها تعظيمُ البيتِ ورعايةُ حرمته، مع نصبِ الأوثانِ حوْلَه وعبادتها، وبعضُ ما بقيَ من العبادات دخلهُ التحريفُ والتشدُّدُ، كالحجِّ، وما زال أمر الناس كذلك حتى قال يومًا زيدُ بن عمرو بن نفيل: يا معشرَ قريش، والله ما أصبحَ منكم اليومَ أحدٌ على دينِ إبراهيم غيري، وقال المقدادُ بن عمرو: لقد بُعث محمد على أشدِّ حالٍ بُعث عليها نبيٌّ قط، ما كانوا يروْن دينا أفضلَ من عبادة الأوثان!

وفي صحيح مسلم عن رسول الله : "إن الله نظر إلى أهلِ الأرضِ، فمَقَتهم عربَهم وعجمَهم إلا قليلًا من أهل الكتاب «، فلك أن تتصور ما آل إليه حالُ

أهلِ تلك المدةِ، حتى سُميَتْ بالجاهليةِ، وكان ضرورةً أن يظهرَ في الناسِ مَنْ ينتشلهم من أوحالِ الكفْرِ ويُخرجهم من ظلماتِ الوثنيَّةِ، ويسحقُ جاهليَّهمْ سحقًا ثم يدعُها تذروها الرياح.

في تلك الظَّلْماء الحنْدسِ، أشرَقَتْ في بعض الأيام مكةُ بنورٍ ضاءتْ به الدنيا، وُلدَ مولودٌ طاهرٌ نقيٌّ استشرَفَ الناس لهُ شأنا عظيما، وتباركوا بهِ وبمقدمهِ، وأُلقِيَتْ عليه محبةٌ ومكانةٌ في القلوبِ، وبُثَّ الخوفُ والرعبُ في قلوبٍ أخرى لا يزيدها سطوعُ الأنوارِ إلا عشاوةً.

وُلدَ بمكة، ونشأ في ديار بني سعد، وغُذي بلبانها حتى استوى غلامًا صحيحَ البدنِ والنفْسِ، تقول ظئرُه حليمةُ السعدية: وكان يشب في الجُمعة شباب غيره في الشهر، ويشبُّ في الشهر شباب غيرِه في السنة، فلم يبلغْ سنتَيْهِ حتى كان غلاما جفرًا.

وكانت علائمُ النجابةِ ومخايلُ الفطنة تلوحُ في وجههِ منذ صغره، وأماراتُ البركةِ والخيرِ ظاهرةً عليهِ، تحلُّ حيثُ حلَّ، وترتحلُ معهُ متى ما ارتحلَ، أمه تحبُّه، وظئرُهُ تضِنُّ به، وجدُّه يتفرسُ فيهِ المكانةَ العظيمة، وعمُّه يحوطُه بما يقدر عليه، وهو يشبُّ على أحسن الخصالِ، ويستوي على خيرِ الخِلالِ، وينبُتُ نباتا حسنا، ويزكو قلبُه بالإيمانِ والخيرِ وهو لا يدري ماذا يُرادُ به في مستقبَل الدهرِ، فيرفضُ ما عليهِ قومُهُ إذ كان النموذجَ للإنسانِ الذي جُمع فيه طهارةُ القلبِ وصفاؤهُ، ورجاحةُ العقلِ وتمامُهُ، ويعافُ كل مظهرٍ للكفرِ والشرك مِن حوله، ويعصمه اللهُ تعالى من خطواتِ الشياطينِ

الجوَّالةِ في القلوبِ تُزيغها يمنةً وشمالًا فلا تبصرُ من الحقِّ إلا ما كان من إلْفِها أو موافقًا لهواها!

كانت الأيام تمضي، والأحداثُ تتَالى، فلا يزدادُ محمدٌ إلا رفعةً ومكانة، حتى سُمي بالصادقِ الأمينِ، وكان موضعَ ثقة الناسِ ومستودَعَ أمانتهم وأسرارِهم، ولقد ظهرَ من عقلهِ في بعضِ الحوادثِ ما يحارُ منه اللبيبُ، ففي أيامِ بناءِ الكعبةِ كاد سَرَواتُ قريشٍ وكبراؤهم يقتتلون على قضية وضْعِ الحَجرِ الأسودِ في موضعه من البيتِ، فلما دخلَ عليهم حكَّموهُ، فأشار عليهم برأيٍ لا يشكُّ إنسانٌ أنه يشفُّ عن عقلٍ تامٍّ ونفسٍ شفيفة واعيةٍ.

بلغَ محمَّدٌ أشدَّهُ واستوى، وتتامَّتْ فيه خصالُ الخيرِ فطريُّها ومكتسَبُها، وانعكسَ صدقُهُ على رؤاهُ في نومه، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءتْ مثلَ فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه أن يخلوَ بنفسهِ، يتعبَّدُ ويتفكر، فما زال هذا دأبَهُ حتى فجأَهُ الحقُّ في إحدى خلواته، التي كانت في جبلِ حراءٍ، ذلك الجبلِ الذي كان مشرفًا على مكةَ عبرَ الزمانِ، فرآها وهي في حليةٍ من الإيمانِ قشيبةٍ، ثم رآها وهي تُخلعُ من فوقها تلك الثيابُ الزاهيةُ لتُستبدل بها أثوابٌ دَنِسةٌ، كانت مكةُ تئنُّ من الكفْر والطغيان الذي بُلِيَتْ بهِ أرضها.

فكانت تلك اللحظةُ -لحظةُ نزول الوحي- نقطةَ تحوُّلٍ في الأحداث، وتغيُّرٍ في الموازين، منذ عادَ محمدٌ إلى منزلِهِ نبيًّا بعدَ أن غادرَهُ لِخلوةٍ فحسبُ، ومنذُ انطلقتْ خديجةُ، المثلُ الأعلى للمرأةِ الصالحةِ والزوجةِ الصالحةِ ووزيرةِ الصدقِ، والنموذجُ الأسمى للعطاءِ والتضحيةِ بكل ما وسِعَها بذْلُهُ، تُثبِّتُ

يقينَها الذي استقرَّ في وجدانها من حينِ عرَفَتْ محمدا أولَ مرة، ولتنتقلَ من علم اليقينِ إلى عينِ اليقين، ولتعلنَها في الملأِ بلسانِ حالها: أنت نبيُّ الأمةِ، وأنا أولُ الخلْقِ إيمانا بك، وتصديقًا بشرعتك!

ثمَّ بإيمانِ أهلِ بيتِهِ الأدنَيْنَ، وصاحبِهِ المقرَّبِ أبي بكر الصدِّيقِ، الذي نشأ على الخير والسماحةِ، والذي عرف محمدا ووَالَفَه، وعرف مداخلَه ومخارجَهُ، وخبَرَ صدقَه وأمانتَهُ، فلم يتردد لحظةً عن الانقيادِ للدينِ القويم، ثم بتتابُعِ الأفراد على الدخول في الإسلام، مرورًا بأيامٍ عصيبةٍ ذاقَ فيها أبناءُ هذا الدينِ الويلاتِ وألوانَ النكالِ، ومُنُوا بأصنافٍ منَ التعذيب والإهانةِ لا تقومُ لها الجبالُ في شموخِها وعلوِّها، لكنَّهم كانتِ الجبالُ تتصاغرُ لثباتِهِمْ وصبْرِهم، كيف لا وهُمُ الذين نظر الله في قلوبهم فاختارهم لصحبةِ نبيِّه، وحمْلِ دينِه، ولَمَ لا وإنهم الجيلُ الذي كان الله يُعِدُّهم لعظيماتٍ من الأمورِ صارت في زماننا أقاصيصَ وأحاديثَ أسمارٍ!

لَمْ تُغْنِ عنهم مكةُ مما أذاقَهُم أبناؤها العاقُّونَ شيئا، وضاقت عليهم الأرضُ بما رحبتْ، والتمسوا لأنفسهم منفذًا يكونون فيهِ في فسحةٍ من دينهم، ويتنفَّسونَ هواءً نقيًّا، فكانت الحبشةُ ملاذًا لبعضهم، ولكنَّ طيبةَ كانت تختزنُ في باطنِها كلَّ المشاعرِ الزاكية، التي ظهرتْ فيما بعدُ ترحابًا ووُدًّا، وإيمانًا وبِشرًا، ولقيَ المسلمونَ فيها الأمْن والفسحة، والتقتْ بركاتُ السماءِ بخيراتِ الأرضِ.

المدينة، وأشواقُ العودة:

كانت الأيام الأولى في المدينةِ الجديدةِ عصيبةً على المسلمين، فقد طُردوا من أرضِهم، وأخذتْهمُ الحمَّى، فاجتمع عليهم كَرْبٌ ومرضٌ، ولكن تتابعَتْ ومضاتُ الفرَجِ، انقشَعَتِ الحُمى، وطابتِ النفوسُ بإخوانِ صدقٍ وبرٍّ وإيثارٍ، وتنزَّلَتِ الآيات شيئا فشيئا، وكان من ألْمَعِ أنوارِ الفرج حينذاكَ نزولُ قول الحق جلَّ في عُلاه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ﴾، أمنيةٌ طالما تمناها المظلومون المضطهدونَ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغيرِ حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا اللهُ، الذين غُلبوا على أرضهم فبَقِيَتْ تبكي خطواتِهم وتتوجَّعُ لفراقِهِمْ!

تكوَّنتْ للمسلمينَ قوةٌ، واكتسبوا منَعَةً وشوكةً، وبدأتِ الأمورُ تجري في مسارِ التمكينِ، بدايةً بالبعثاتِ الصغيرةِ لرصدِ القوافلِ، مرورًا بسريةِ عبدالله بنِ جحشٍ إلى بطن نخلة، ثم خروجِ المسلمينَ لحيازةِ قافلةِ قريشٍ، وهما الأمرانِ الذي كانا جذوَتَيْن أُوقدتْ بهما الحربُ بين المسلمينَ والكفارِ، في يومِ بدرٍ يومِ الفرقانِ، ثم يومِ أحدٍ وقد مُحِّصَ المسلمونَ وانقلبَ الكفارُ فرحِينَ بغَيرِ مَفْرحٍ، ثم يوم الأحزابِ وقد كان المسلمون في خوفٍ وجهْدٍ من تكالبِ الأعداءِ وخيانةِ الحُلفاءِ وبزوغِ نجمِ النفاقِ، فكفاهمُ اللهُ كلَّ ذلكَ، وأفْضَلَ عليهم فضلًا عظيمًا وفيرا.

ثم مرَّتْ تلك المرحلة من مسيرةِ الدعوةِ والجهادِ بمحطَّةِ صُلْح وهدنةٍ، يستلْمِحُ البصيرُ فيها ضعْفًا حلَّ بأهلِ مكةَ، وقد أكلتْهم الحوادثُ وأضعَفَتْ عزائمَهُمْ، مذ أُصيبُوا بساداتِهم وكبارِهم يومَ بدْرٍ، فرَضوا بالهدْنة، ورضي بها الرسول ، لكنَّ المسلمين أصابهمْ من الغمِّ ما كادَ يَذهبُ بنفوسهم، وحسبُكَ أن المحدَّثَ الملْهَمَ عمرَ بنَ الخطابِ تكلَّمَ في ذلك الموقفِ كلامَ المُغضَبِ، ولكنْ كانت تلك الهدنةُ محطةً انتقاليةً غير مسبوقةٍ في خطِّ حركةِ الدعوةِ والجهادِ على حدٍّ سواءٍ، وأنزل الله تبارك وتعالى في طريق عودة الركْبِ المباركِ من الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، دلالةً على أهمية تلك الهدنة حتى عُدَّتْ فتحا!

كان أولُ وأعظمُ بركاتِ أيام الحديبيةِ: رضا اللهِ عن المؤمنينَ بعدَ البيعة، ثم ظهرتِ الثمراتُ الملموسةُ، فأَمِنَ المسلمونَ جانبَ قريشٍ، وانطلقَ الإسلامُ يلتمسُ مواقعَهُ في قلوبِ الناسِ في أنحاءِ الجزيرةِ، انطلقَ حاملًا القلمَ والكتابَ بإحدى يديْهِ، فكانت الرُّسلُ تُبعثُ بالكتبِ إلى الملوكِ لدعوتهمْ إلى الدينِ الحنيفِ، وبالأخرى كان يحملُ سيفَهُ يجاهدُ بهِ، ما بينَ غزواتٍ وسرايا، كانت أهمَّ الغزوات في تلك المدةِ على الإطلاقِ غزوةُ خيبرٍ، التي كان لها آثارُها في حياة المسلمينَ اقتصاديًّا وسياسيًّا بصورةٍ غير مسبوقةٍ، وتزامنتْ معَ انقضائها عودةُ مهاجِرةِ الحبشةِ المدينةِ، ثم كانت إحدى أهمِّ السرايا، سريةُ مؤتةُ، وقدْ سُبِقتْ بإسلامِ خالدِ بن الوليدِ صاحبِ أعظم المآثرِ العسكريةِ منذُ أسلمَ، وعمرو بنِ العاصِ وعثمانِ بن طلحةَ.

ومن ذلك أيضا: عمرةُ القضاءِ، التي كانت بدلًا من عمرةِ الحديبية التي مُنع المسلمون من أدائها، فعادوا إلى أرضهم الأمِّ، حادِيُهُمُ الشوقُ وسائقُهمُ الحنينُ، فطافوا بالبيتِ وقد عانقَتْ قلوبُهمْ أركانهُ، وزال بعضُ ما كانَ بهمْ، لولا أن شرطًا في الهدنة أبطلَ عليهم اكتمالَ الفرْحِ، فخرجوا منها بعد ثلاثةِ أيامٍ، وفاءً بما عاهدوا عليهِ، واضطرمتْ نارُ الشوقِ بعد أن كادتْ تخبو!

ومن الثمراتِ هجرةُ أم كلثوم بنتِ عقبة، وحادثةُ أبي بصيرٍ وأصحابهِ، وعلى أساسهما انهدَمَ ركنٌ من أركان الهدنةِ السابقةِ، ثم أَعْملَ الكفارُ معاولَهمْ في هدم بقيةِ أركانها، فغَدرَ بنو بكرِ بن عبدِ مناةٍ وهمْ حلفاءُ قريشٍ في الهدنة، بخُزاعةَ وهم حلفاءُ المسلمينَ، وعاونتْهُم على الغدرِ قريشٌ، فانتقضتِ الهدنةُ على رؤوسهِمْ، وجنَتْ عليهمْ أيديهمْ، وقامتْ عليهمُ الحجَّةُ التي لا بَعدَها!

فتحُ الفتوحِ:

كان كفَةُ الميزانِ ترجُحُ في جانبِ المسلمينَ، وعمومُ الأحوالِ تواتيهمْ ممهدَةً لهم الطريقَ لبسْطِ دعوتِهم وتطهيرِ البلادِ من درنِ الكفرِ، وغسلِ القلوبِ من أوضارِ الشركِ، وعلى العكس كانتْ كفةُ أهل مكةَ تطيشُ بهمْ، فبينما ازدادَ عددُ معتنقي الإسلام إلى عشرةِ آلاف مقاتلٍ سوى غيرهم ممن أسلم، بعد أن كان لا يزيدُ عن ألفُ وبضع مئاتٍ من المقاتلين، كان الكفارُ يقطعونَ أيديَهمْ بفؤوسهِمْ، وكانت كل العُقَد التي عقدها الكُفْر بين مكةَ ودينِها الحنيفِ، وأبنائها البررةِ قد انحلَّتْ تباعًا، فكان لا بد للإسلام أن يعود إلى منطلَقِهِ الأولِ شامخًا منتصرًا، بعد أن حوربَ وعودِيَ في مهده!

جاء أبو سفيان يريد أن يزيد في مدة العقدِ، فباءَ بالإعراضِ، فعادَ يجرُّ أذيالَ الخيبةِ، وأبصر الغيبَ الذي ظهرتْ براهينُهُ، فعلمَ أن المسلمين سيدخلون مكةَ، ولكن لن يدخلوها أذلاءَ مُهانينَ، بل ستفتَحُ لهم أذرعتَها، وستحتضنُهم بكل حبٍّ، وسينثرونَ في كلِّ جنباتِها عبيرَ الملةِ السمْحة، ويشنفون أسماعَها بصوتِ الحقِّ والإيمانِ، فأسرعَ السيرَ إلى مكةَ نذيرًا لقومِهِ، الذين كانوا ما يزالونَ في غيِّهِمْ سادرينَ!

تجهزَّتِ الجيوشُ، واستعدَّ الناسُ، وانطلق المسلمونَ عامدينَ إلى الأرضِ المقدسةِ كي يطاردوا ذرَّاتِ الكفرِ، فيَقْضوا عليها بسيوف الإيمانِ!

وفي الطريقِ وقعتْ بعض الأمورِ، وكان لا بد من أن تقع، خرج العباسُ بن عبدالمطلب مهاجرا بأهلِهِ، وانطلق أبو سفيانَ يستنطقُ ذلك الركْبَ أخبارَهم، فعاد مسلمًا محذِّرًا قومَهُ من دخول جيش الفاتحينَ، الذين دلفوا إلى الديارِ المعظَّمَةِ فألقَوْا عن ظهورِهم تلك الأحمالَ الثقيلة من الشوقِ واللوعةِ، دخلوا ظافرينَ، منصورينَ، مؤزَّرين فاتحينَ، وانطلق "المُخَلِّصُ «، الذي كان لا بد أن يظهرَ في بعضِ الزمانِ كيْ يعيدَ مكةَ عريسًا في أبهى حللِها التي كانت تزَّيَّنُ بها في الدهرِ الغابرِ، قبل أن يكسوَها الكُفْرُ خُلقانَ الثيابِ، أخذ النبي يطوف بالبيتِ، ويهدمُ تلك الأشياءَ المنصوبةَ حولَهُ وهي لا تستحقُّ أن تكون حجارةً في بنائه، ويهدمُ معها ما تبقَّى في النفوس من الوثنيَّةِ وبقايا الجاهليَّةِ!

بلال، الذي طالما سُحب في أزقة مكة بالحبال، أصبح اليومَ يؤذنُ بالحق على ظهرِ الكعبةِ الغرَّاءِ، دخل النبي البيتَ، وصلى فيه، ثم خرجَ، فوقفَ على رؤوس الناس، الناس الذين لم يتركوا ضرْبا من الألمِ إلا ألحقُوهُ به وبأصحابه، الناس الذين ظلموه وطردوه، وهانَ عليهم وعزُّوا عليه، هو الآن صاحبُ الكلمةَ، وصاحب السلطةِ، هو الذي يأمرُ، فتُسَلُّ عشرةُ آلاف سيفٍ من أجفانها، تشيط في أجسادِ هؤلاء "الناس "ضربًا وانتقامًا واشتفاءً، ولكنْ!

ولكن محمدًا، الذي تسامى عن خلائق "الناس "في ريعانِ صبائهِ وغضارةِ يفْعَتِه وزهرة شبابهِ، لم يكن ليهبطَ إلى ذلك الدرْكِ بعد أن أسنَّ واستوى رجلًا تامَّ الرجولةِ وافرَ الخُلُقِ، وأصبح اسمُه الذي ينادى به: رسولَ اللهِ، فهو الآن نبيُّ الله، وإمام الناسِ، وأحلمُ الناسِ وأكرمُ الناسِ، فبثَّ فيهم كلمتَه الخالدةِ، التي حملتها رياحُ الدهرِ لتبلُغَ بها أسماعَ الناسِ إلى أن ينقضيَ الزمانُ: اذهبوا فأنتمُ الطلقاءُ.

وأما بعدُ: ففي مثل هذا اليوم المبارك، يومِ عشرينَ من شهر رمضانَ المعظَّمِ، سنة عشرٍ من الهجرة النبوية المباركة. فُتِحتْ مكةُ!



قصةُ الحج

كلَّ عامٍ يفِد علينا موسمُ الحج، موسمٌ كريمٌ عظيمٌ، يلقي علينا دروسَه ومواعظَه ونحنُ نصغي إليه خاشعينَ مُنصتِين، ويُفيض علينا من بركاتِه وخيراتِه ما يغمرنا طَوالَ عامٍ من الزمانِ.

قصةُ الحج مدهشةٌ إلى الغاية، كانت بدايتُها يومَ أَوْدع إبراهيمُ الخليلُ ابنَه إسماعيلَ وأمَّ ابنِه هاجرَ، عليهم الصلاةُ والسلامُ، بطنَ مكة حيثُ لا زرعٌ ولا ماءٌ، بقعةٌ خِلْوٌ من نضارةِ الحياة ومباهجِ الدنيا، ثم أطلقَ مِن جوفِه الطاهر دعواتٍ مباركاتٍ، أرسلَهنَّ على جناحَينِ من إخلاصٍ وضراعةٍ، حتى أخذنَ موضعَهُنَّ في الملكوتِ الأعلى، ليَنزلَ جوابُهنَّ أتمَّ ما يكون.

يطوي الخليلُ المفاوزَ إلى هذا الوادي بعدَ زمانٍ، فيَجِدُه عامرًا بالناس، فقدْ ظهَرَ ماءُ زمزمَ الطيبُ المباركُ، فهَوَتْ أفئدةٌ من الناسِ إليه، وتلك أُولَى البشائرِ. هذا الذي كان رضيعًا، ها هو قدْ بلغَ السعْيَ، فأخبرَه أبوه بأمرٍ مِن أمرِ اللهِ، فلم يتردَّدْ طرفةَ عينٍ، ها هما يرفعانِ القواعدَ من البيتِ، وألسنتُهما تغرفُ من قلوبِهما أخْلَصَ الدعاءِ وأصدَقَهُ.

ثم يؤمَرُ إبراهيمُ بالنداء، فينسابُ صوتُهُ عذبًا رقراقًا، ليبلغَ آذانًا لم تزلْ في أصلابِ آبائها وأرحامِ أمهاتها. كلُّ مَن كُتب لهُ الحجُّ في طولِ الدهرِ وعرضِ الكونِ قد نالَ حظَّه منَ ذاك النداء الباهر. كيف لو بُعث الخليل عليه السلام

لِيرى ما لا حصْرَ له من الناسِ يشدُّونَ رحالَهم كلَّ عام إلى تلك البقعة من الأرض؟ تحُفُّهُم الرحمةُ ويحدوهُم الاشتياقُ، يكسوهُم البياضُ ويلُفُّهُم الطُّهْرُ، ونغْمتُه لها ترنيمٌ في أسماعِهم: إنَّ اللهَ كتب عليكم الحجَّ فحُجُّوا. لقدْ قرَّتْ عينُ الخليلِ ويْمُ اللهِ!

وهذهِ الأمةُ المباركةُ أولى الأممِ بإبراهيمَ، وأتْبَعُ الأممِ لِملَّتِه، ومناسكُهُم على رَسْمِ مَنسكِه. ويا لهذه الأمةِ وحكايتِها مع الحجِّ. قبلَ سنواتٍ لم يُنْفَضْ غبارُهنَّ عن أكتافِ المؤمنين، كان محمدٌ يدورُ على الناسِ في منازلهم في الحجِّ، يدعوهم إلى الله، ويحضُّهمْ على نصرِه وإيوائه، يُرشدهم إلى كلمةٍ يقولونها ينالونَ بها الفلاحَ، فيُقابَلُ بنظرةِ ازدراءٍ من هنا، وتقرعُ أذنَيْه كلمةٌ نابيةٌ من هناك، ويدورُ خلفَهُ رجلٌ من أهلِ بيتِه قد أُوصِدَتْ منافذُ الخيرِ إلى قلبِه، يسخرُ منهُ ويكِّذُبه على ملأِ الناس. لمثل هذا تنهاضُ العزائمُ، وتخرُّ لِرؤوسها الجبالُ. لكنَّه محمد.

ومَعَ ذلك، فَموسمُ الحجِّ ومشاعرُ الحج لها حكايةٌ تلتَذُّ بها النفوسُ المؤمنةُ. في لحظةٍ من الزمانِ ألقَتْ يثربُ جذوةً من النورِ لِتلتقِطَها العقبةُ الكبرى، ولقيَ رسولَ الله ستَّةٌ من الأنصار، وما أدراكَ ما الأنصارُ! فأسلموا بعدَما سمعوا خيرَ القولِ، وأشرقَتْ قلوبُهم بِنور الوحي، فَلاحتْ بوادرُ الفرج بعدَ سنيِّ الشدة وقحطِ القلوبِ، ثم ما زال الأنصارُ يُقبلون إلى الحجِّ بأجسادهم، وإلى الحقِّ بِقلوبهم. يقولُ كعب بنُ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في سياقِ حديثِه عن تخلُّفه عن غزوةِ تبوك: ولقد شهدتُ معَ رسول الله ليلةَ العقبة، حينَ تَواثَقْنا على

الإسلام، وما أَحِبُّ أن لي بها مشهدَ بدر! وإن كانتْ بدرٌ أذكَرَ في الناس منها. حتى ازدهرَ الإسلامُ، وأينَعَتْ ثمرتُه بِطَيْبَةَ الطيِّبة، فصارت أرضَ هجرةٍ مباركة.

هل تضاءلَتْ أشواقُ المهاجِرين إلى مراتعِ الصبا ومغاني الشباب، وموطنِ الإسلامِ أيامَ جِدَّتِه وغضاضتِه؟ هلْ ضمرَ الحبُّ في نفسِهمْ لِتلك الرباعِ الأثيرةِ؟ كلا والله. مرِض أبو بكرٍ وبلالٌ وعامرُ بن فهيرة، فأخذوا ينشدون الشعرَ حنينًا إلى مكة، ولمَّا يجفَّ العرقُ عن رواحلِهم من طولِ السفرِ! ثم ضرَبَ الزمانُ ضرْبَهُ، ودخلَتِ السنةُ السادسةُ، والقلوبُ مضطَرِمةٌ بالوَجْدِ والهُيام، انطلقوا ملبِّينَ بالعمرةِ، لكنَّ حبلَ الآمالِ انقطعَ في الحديبية. أرادوا مَلْءَ أَبصارِهم من منظَرِ البيت العتيق، لكنْ حالتْ بينهم وبينه حُجُبٌ من الكفرِ والعدوانِ، وصدَّتْهم عنه قلوبٌ مضطغِنةٌ أكلَها الحقدُ والبغضاءُ للإسلامِ وأهله.

ثم ما كادوا يهْنؤونَ بزيارتِهِ، وما امتلأَتْ صدورُهم مِن أنسامِهِ الخلَّابَةِ -بعدَ عامٍ من ذلك اليومِ- حتى أُخرِجوا منه تارةً أخرى، لتتَّقِدَ اللوعةُ في قلوبهم متجدِّدةً، فما زالَت تخبو وتشتعلُ مع الأيامِ والليالي، حتى انطفأتْ بأعتاب مكة، حينَ دخلوها حاملينَ راياتِ النصرِ والفتح المُبين. بلال؟ الذي طالَمَا جُرَّ بالحبال في رمضاءِ مكة، وتحمَّلَ من العذابِ ما تُدَكُّ به الرواسي؟ ها هو اليوم يعلو ظهرَ الكعبةِ، وقدِ انفصمَتْ عن يديْهِ آخرُ أصفادِ الرِّقِّ، صادحًا بنداءِ الحقِّ، لتُشرقَ مكةُ نورًا باهرًا، يُبدِّد ظلماتِ الكفرِ والطغيانِ،

الذي جاء به عمرو بن لحي، وثبَّتَه في الناس عمرو بن هشام، ألَا قبَّحَ اللهُ ذيْنكَ العَمْرَيْن، ولحاهُمَا وهَشَمَ أوصالَهما في الجحيم!

بعدَ سنةٍ وأشهرٍ من الفتحِ الخالدِ، انطلقَ أميرًا بالحجِّ أبو بكرٍ الصدِّيقُ، العبدُ الصالحُ الذي طالما أنصَتَتْ جنباتُ مكةَ لِقراءتِه في الصلاةِ، ثم دَعَتْ نساءها وأبناءَها، فتقصَّفوا حوْلَهُ يستمعونَ، ويَعجبونَ مما عجِبَتْ منه أمُّ القرى. في تلك الحجَّةِ وُضعَتْ عن مكةَ آخرُ أغلالِ الكفرِ والشركِ، وأُبدِلَتْ بها حللًا قشيبةً زاهيةً من الدينِ، وأساورَ لها بريقٌ بالإيمانِ، وأصبَحَتْ يُعظَّم فيها اللهُ وحدَه لا شريكَ له، بعدَ أنْ كان يُعظم فيها كلُّ شيءٍ إلا اللهُ. حتى الحَجَرُ، فليسَ يحجُّ بعدَ ذلك العامِ مُشركٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ عريان.

أما الحجةُ الكبرى، حجةُ الوداعِ، حجةُ الإسلامِ، فَتِلك التي تنقبُ القلوبَ لِتستخرجَ منها كامنَ المشاعرِ، وتخضعُ لها الدموعُ تحت تسلُّطِ المحاجرِ. محمدٌ ، الذي كان قبل سنواتٍ مطارَدًا، مُكذَّبًا، يُسخَر به في عُقْرِ مكةِ وقَلْبِ المشاعرِ، ها هو اليومَ يُعِد العدةَ لِيَحجَّ البيتَ، محفودًا محشودًا، القبائلُ التي كانتْ عليه ألبًا واحدًا في الشرِّ والعداوةِ، هي الآن تعودُ قلبًا واحدًا في الخيرِ والمحبةِ، تُجهِّز جَهازَها، وتحطُّ رحالَها في المدينة، تحمُلُها رياحُ الإيمانِ الصافي، وتلتمسُ الائتمامَ بأعظمِ إمام، في أجملِ رحلةٍ مباركةٍ، بعد أن خدعَها الحُمْسُ بشعائرِ الكفرِ ومناسكِ الضَّلالِ سنينَ عددًا!

قال جابرُ بنُ عبدِ الله، وهو يحدِّثُ محمدًا الباقرَ، رضي الله عنهم جميعا: فقدِمَ المدينةَ بشرٌ كثيرٌ، كلُّهم يلتمسُ أن يأتَمَّ برسولِ الله. يا للهِ! كلُّ هؤلاء

يريدونَ الاقتداءَ به، ولعلَّ بعضَهم كانَ مِمَّن ذاقَ منهُ المسلمونَ الويلَ في زمنٍ غابرٍ، ولكن الله يهدي من يشاء. كم قبيلةٍ من تلك القبائلِ كانت تسفِّهُ تلك الدعوةَ المباركةَ، وتُجلِب عليها بالخيلِ والرَّجِلِ، ثم هي اليومَ مُسلَسَةُ القِيادِ له، مدفوعةٌ بأمرِه ونهْيه، وتلك الأيامُ يداولُها اللهُ بين عبادِه.

ركائبُ النورِ تنطلقُ من المدينةِ النبويةِ، مُيمِّمةً شطرَ البيتِ الحرامِ، البيت الذي أصبحَ مغتبِطًا بمَقْدمِ أولِ زمرةٍ من الحجيجِ ليسَ فيهم مُشركٌ، بعد استحواذِ الكرْبِ على قلْبِه من كثرةِ وفودِ الشركِ والكفْرِ عليه، بعد أن كانت الدماءُ تُراقُ حولَه لِغَيرِ الإلهِ الذي بُنِيَ البيتُ له، بعد أن طوَّفَ زيْدُ بن عمْرِو بن نُفيلٍ القرشي أنحاءَ البلادِ ينشُدُ الحقَّ والفطرةَ، حينَ كان ينبغي أن تكونَ منه على مرمى حجرٍ، وأن يكون أولى الناسِ بها قومُه الذين هوَ بينَ ظهرانيهِمْ!

طرقٌ وشعابٌ وثنايا قد سلَكَها مِن قبْلُ النبيُّون الكرامُ، تهفو الآن لِخاتَمِهم، تحِنُّ إلى سيدهم، ترتقبُ تشريفَهُ لها بِخطْوِه الكريم، الناقةُ التي حبَسَها حابسُ الفيلِ قبلَ أعوامٍ، تحثُّ السيرَ اليومَ إلى ذلك المَقام، محفوفةً بالأمنِ، مكتنَفَةً بالسلامِ واليُمْنِ، عشرُ سنواتٍ كانتْ كأنها الرواسي جَثَمَتْ على أفئدةِ الطيرِ.

ثمَّ انقضَتْ تلك السنونَ وأهلُها

فكأنها وكأنهم أحلامُ!

مئاتُ الأميالِ يعطِّرُها التكبيرُ والتهليلُ، والتلبيةُ للهِ العظيم وحدَهُ دونَ سواه. ذرَّاتُ الكفرِ المتطايرة في الجوِّ، تسحقُها وتُذيبُها وتذْروها الرياحُ. بقايا الليلِ الذي خلَّفَتْه الأصنامُ في رحلةِ الهُويَّ، يُزيحُها نهارُ الإيمانِ وأنوارُ الهدى واليقينِ. يونُسُ الذي نجَّاهُ اللهُ من الغمِّ قد مرَّ من هنا، وموسى الذي ذاقَ من قومِهِ العناءَ قد سارَ في هذا الوادي، هودٌ وصالحٌ قد كانَ لهم صياحٌ بالتلبيةِ ها هنا.

سبعونَ نبيًّا كلُّهم سلك هذه الدروبَ، وطوى تلكَ الفيافي والقفارَ، كلهم لَقيَ من التكذيبِ والعَنَتِ ما لقيَ محمد ﷺ. ذهبَ ذلكَ كلُّهُ، وبقيَ لهم الذكرُ والأجرُ العظيم. لعل النبيَّ كان يحدِّثُ نفسَه بهذا، ويتذكرُ أيامًا سَلَفَتْ بما فيها من الجهدِ والجهاد، والصبرِ والكفاحِ، حتى استقامَ المنسمُ، واستوى الدينُ على سوقِه.

ينظرُ يمنةً وشمالًا، ومن أمامِه ومن خلفِه، فلا يرى إلا بشرًا، كلهم يلتمسونَ هديَهُ ويقتفون أثرَهُ ويرْجونَ بركتَهُ، وقد كان قبلَ عقْدٍ من الزمانِ يَقطعُ هذا الطريقَ مهاجرًا، ليس معهُ إلا ثلاثةُ نفرٍ، أحدُهم كافرٌ، والثاني مضى إلى ربِّهِ شهيدًا، والثالثُ خيرُ الأولينَ والآخرينَ بعد النبيينَ والمرسلينَ. لله ما أسرعَ دوْرَةَ الأيام وأعْجبَ تصاريفَ الدهرِ! فَمَن يأسى بعدَ هذا على مأْسُوٍّ عليه، ومَنْ يفرحُ بشيءٍ من الدنيا بالغًا ما بلغَ ؟!

تَغنَّت مكةُ أيامَئذٍ طَربًا، وأسبَلتْ دموعَ الفرحِ، واحتضنَتِ الوفدَ الأعظمَ في الدهرِ. خاتمةُ القصةِ الطويلةِ، المليئةِ بالحوادثِ، المكتنزةِ بالعجائبِ، ها هيَ

قد دَنَتْ. المنبعُ الأولُ لِدينِ اللهِ العظيمِ، ها هو يحتفي بالآلافِ مِن معتنقيهِ. لسانُ حالِهِ: أنتم لَعمرُ اللهِ وفدُ الله، لا وفودُ الشيطانِ الذين دنَّسوا أرداني بِالخزيِ والشركِ!

موكبُ الحجِّ الربانيُّ يؤدي المناسكَ. محمدٌ يقتفي أباهُ إبراهيمَ عليهما الصلاة والسلام، ويتبعُ ملته. حياةُ محمدٍ كلُّها كانت اتباعًا لآثار أبيهِ إبراهيم، التماسًا للحق الذي حَمَله وبلَّغَه، ثم دعوةً إلى الدينِ الذي أُرسل به، ثم هو ذا يقتدي بِمنْسكِه المباركِ، في آخر فصولِ حياته الشريفة. المسلمونَ يملؤون السككَ، كلُّ خطوةٍ تشعُّ نورًا، كلُّ تلبيةٍ تفيضُ جلالا، كلُّ نبضةٍ تترنَّمُ بهجةً. عرفة، التي خفضَ الحُمْسُ من شأنها، ووَلَّوْها أدبارَهم، أعادَ النبيُّ إليها منزلتَها السنِيَّةِ، وصارَ الحجُّ عرفةَ، كما جاء به الحديثُ الشريفُ، فلا حجَّ دونَ الوقوفِ بها!

هو الآن يقفُ فيهم خطيبًا، مِصْقَعًا، بليغًا، يستمعُ إليهِ ذلك الجمعُ الغفيرُ، تُنصِت إلى كلامِه أرجاءُ الوادي الفسيحِ، تصغي إلى روعةِ بيانِه الجبالُ والأشجارُ والأحجارُ. كلُّ شيءٍ ها هنا يرتقبُ أمرًا هائلًا لمْ يُعهَد مثلُه مِن سنينَ. "لَعَلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا"، يا الله! بعدَ هذهِ الغُربةِ المضْنيَة يا رسولَ اللهِ؟ بعد الجهاد والكفاح، والصبرِ والمصابرةِ، ينقطعُ العهد بك يا نبيَّ الله؟ كأنَّ قلوبَ المؤمنين تصدَّعَتْ يومئذٍ لِثقَلِ الكلمةِ، كأنَّ الجبالَ انهدَّتْ مِنْ عِظَمِ المُصابِ، مكةُ تنتظرُ اللقاءَ الأخيرَ، الذي يجمعُها بأعظمِ أبنائها،

الذي لا يجودُ الزمانُ بمثلِه أبدا. اليومَ اكتملَ الدينُ، وأتمَّ اللهُ النعمةَ، فيَا لهُ مِن يومٍ، اختلطَ فيهِ الفرحُ الأكبرُ بِالحزْنِ الأشد!

ثم أكَّدَ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه في نفوس أصحابه معالمَ الدينِ العظيمةَ وشرائعَه القويمةَ، فدماؤهم وأموالُهم وأعراضُهم عليهم حرامٌ، والربا موضوعٌ، ودماءُ الجاهلية موضوعةٌ، والشيطانُ قد يئسَ أن يُعبد في أرضهم، ولكنْ رضيَ بالتحريشِ بينهم، والشهورُ عند الله اثنا عشر شهرا، وللنساءِ عليهم حقٌّ ولهم عليهنَّ حقٌّ. المؤمنونَ إخوةٌ، ولا يحل مالُ امرئٍ إلا عن طيبِ نفسٍ منه، وقد ترك فيهم ما إنْ أخذوا به لم يضلُّوا بعدَهُ، وإن ربَّهم واحد وإنَّ أباهم واحد، وإن الله قسم لِكل وارثٍ نصيبَه من الميراث، والولدُ للفراش وللعاهر الحجرُ، ومن ادعى إلى غير أبيه أو انتسبَ إلى غير مواليه فهو ملعونٌ. لله ما أعظمَ وما أبلَغَ!

الموكبُ الوضَّاءُ يُفِيضُ إلى المزدلفةِ، ثمَّ إلى مِنى، اليومَ يومُ النَّحر، يومُ الحج الأكبرِ، أعظمُ الأيامِ عند الله. يومٌ استوسَقَ فيه الأمرُ، واشتدَّ فيهِ عودُ الإسلامِ، واتخذَ في قلوبِ أتباعِهِ منزلًا علِيًّا، يومٌ تُنحرُ فيه أشدُّ القرابينِ خُلُوصًا لِربِّ العالمينَ، مشفوعةً بالتقوى لِتَحوزَ القَبولَ منهُ جلَّ في علاه. يا لتلك الأيامِ الجميلةِ الشجنَةِ، التي لا تُفارقُ ذكراها كلَّ قاصدٍ لِهذه البقاع، حاجًّا بيتَ اللهِ الحرامَ. كلُّ خطوةٍ يخطوها أحدٌ من الناسِ، تقعُ على أثرِ خطوةٍ مشاها قبلَه نبيٌّ مكرَّمٌ، أو صحابيٌّ جليلٌ.

سلسلةٌ متشابكةٌ من الوقائعِ، والمغازي، والأحداثِ الكبيرةِ والصغيرةِ، واتصالِ الأرضِ بالسماءِ كلَّ يومٍ، بوَحْيٍ غضٍّ طريٍّ، صافٍ نقيٍّ، كانتَ آخرُ حلقاتها في تلك الأيامِ، انقضتْ تلكَ الأمورُ بأكرمِ وِفادةٍ، من أعظمِ وفْدٍ، على أجَلِّ مَوْفودٍ إليه، التماسَ فضله، واستمطارًا لرحمته، ورجاءَ مغفرته، ألَا نِعْمَتْ تلك خاتمةً. بعدَ سنينَ من التعبِ والجهدِ، وأيامٍ من التضحيةِ والبذلِ، يقدُمُ القومُ على اللهِ، متجرِّدين من علائقِ الدنيا، متطهرين من الدَّرَنِ والدنَسِ، مُغتسلينَ من أوضارِ النفوسِ، متجمِّلينَ بالبياض من الثياب، مُتَحَلِّينَ بطاهرٍ القلوب، ومحلِّقينَ بِشَفِيف الأرواحِ، قد أزاحوا عن كواهلهم حكايةً طالما أثقلَتْها، وهيَّؤوها لحملِ قصةٍ أخرى لا تقلُّ عن تلكَ الأولى فذاذةً ودهشةً!

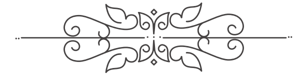
ها هو محمدٌ، ابنُ مكةَ البرُّ، محبُّها الوفيُّ، الذي طالما حَمل في كفَّيْه الحقَّ أبلجَ واضحًا، يسيرُ بهِ في شعابها، ينشُره في رباعها، ويضيءُ به جنباتها، قد طاف بالبيت وسعى، وحلق ونَحر، وقضى مناسكَه، وَوَطَّد أركانَ الدين، ورفَعَ الحرجَ عن المسلمينَ، وكتبَ الفصلَ الأخيرَ من حياتِه العامرةِ بالخيراتِ. هو ذا الآنَ يغادرُها، يودِّعُها الوداعَ الأخيرَ، مكةُ لم تقْضِ وطرَها منه بَعْدُ، تكاد تنفجر ببكاءٍ مريرٍ، جوفُها يحترقُ لوعة وأسًى، لكنَّهُ القدرُ يا مكة!

وإنهُ الوفاءُ للأنصارِ، الذين كانت أذرعتُهم بلْسمًا لجراحاته، وبُيوتُهم منازلَ لأصحابه، وبلادُهم منْطَلَقا لدعوته، الدعوةِ التي خَنَقتْها أكفُّ الظالمينَ مِمَّنْ غُذُوا بلَبانِك، إنه وداعٌ لا لقاء بعده، وفراقٌ لا محيدَ عنه. كيف بكِ يا مكةُ لو كان لكِ قلبٌ كقلوبِ أصحابِه الأبرارِ، الذين كانوا يفْدُونه

بالأنفُسِ، والأموالِ، والأرواحِ لو كان يقبَلُ، الذين أظلمَتْ رِباعُ مدينتِهم بعد أن وُورِيَ ترابَها الطاهرَ ؟!

كيف بزَيْد بْن الدَّثِنَة -يا مكةُ -وهو يقضي نحبَهُ في بعض أطرافِك، بأيدِي العاقِّينَ من فلذاتِ كبِدك، وهو يُسأل: أتُحب أن يكون محمدٌ مكانَك، فيجيب بعزَّةِ المؤمنِ المحبِّ لِنبيِّه: واللهِ ما أحبُّ أن أكون وادِعًا في أهلي ومالي، وأنَّ محمدًا تَشُوكُهُ شوكةٌ ؟! كيف بالهجرةِ إلى الله ورسوله، قد وقع أجرُها على الله، وطابت لأهلِها الحياةُ في ظلالها الظليلة؟ كيف يا مكةُ بأيامِ الجهادِ، الذي كان طرَفُهُ الظالمُ آمنًا في رحابِكِ، وطرفُهُ العادلُ قد حِيلَ بينَه وبينَكِ ؟!

تَجهَّزَ الوفدُ المباركُ للرحيل، وجَهَّز محمدٌ رحْلَهُ، وأعدَّ عدَّتَه، ولَمْلَمَ بقايا ذكرياتِه وحكاياته، ثم مضى، قافلًا إلى طيْبَةَ، إلى الأرضِ التي سُعِدَتْ به حين ضاقتْ به البلاد، إلى القومِ الذين احتفلوا بهِ حين رفَضَهُ الناسُ، إلى المسجدِ الذي أُسِّسَ على التقوى، بعدَ أن أرادوا اغتيالَ التقوى في مهدها الأوَّلِ، إلى الحُجرةِ التي أَوَتْ إليها نفسُه الشريفةُ، إلى البقعة التي اطمأنَّتْ لها روحُه الساميةُ، إلى المساحة التي سينطلق منها، بعدَ أيامٍ معدوداتٍ، في عالمِ الفردوس الأعلى، مع النبيِّينَ والصدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ .. وحَسُنَ أولئك رفيقًا!



عن القدوات

سيرة النبي صلوات الله وسلامه عليه هي السيرة الأكمل للإنسان من حيث هو إنسان، ومن حيث هو نبي، ومن حيث هو قدوة، ومن حيث هو صديق وصاحب، ومن حيث هو زوج وأب، ومن حيث هو داعية إلى الله، ومن حيث هو مجاهد وقائد، ومن حيث نظرتَ إليها وقلبت فكرك فيها.

وأصحابه رضوان الله عليهم هم التمثُّل البشري الأسمى والأعلى لما ينبغي أن يكون عليه أتباع الأنبياء، من حيث المجموع الذي فاق جميع البشر سوى الأنبياء، ومن حيث التفاوت بين أفرادهم، ومن حيث بشريتهم التي تجعلهم دائرين بين حسنة يستكثرون منها ويستزيدون وبين ذنب يستغفرون منه ويتوبون، ومن كل الحيثيات.

ووجود الصحابة بصفتهم جماعة عريضة تمثِّل منهج النبوة والوحي حيا مشهودا يعني قابلية هذا الوحي وهذا المنهج لأن يكون مستعملا بين البشر وليس هو أسطورة من الأساطير.

والقراءة في سيرهم العاطرة لها من الفوائد والبركات ما لها، ولكن الاكتفاء بها دون نزول لمن هو دونهم من الناس قد يُضعف أثر قراءة سيرهم في نفوس الناس، ذلك أن الفجوة الزمانية بيننا وبينهم، مع بروزهم العظيم في كل المجالات المتاحة في دهرهم وقصورنا الشديد عن درك المعالي رغم دنوها منا، تجعل أخبارهم وأحاديثهم أشبه بقصص الأساطير لا تصدقها النفوس التي لم تر صورتهم في مَن تعرفه ممن جاء بعدهم!

لذا فالأصلح لمن يلتمس القدوة أن يتصل بهؤلاء العِلية بسبب متين، وأن يبحث عن أثرهم في القدوات التي جاءت بعدهم على طول التاريخ إلى يوم الناس هذا، فيكون متصلا بهم بسلسلة متينة من القدوات التي كانوا عنصرا فاعلا ممثلا لمنهاج الصحابة في اتباع الوحي والائتساء بهدي النبوة العظيم، وأن يقرأ من سيَر القدوات المعاصرة -أدركها أم لم يدركها- ما يجعله يخترق حجب الزمان ليبصر وقع خطوات أولئك القوم الكرام على هذه الأرض، فلا يظن أنهم ملائكة أنزلت من السماء تأييدا لملَك كريم، أو خلْقٌ آخر غير خلْق الناس اليوم.

ومن فوائد قراءة سير القدوات المصلحين المتأخرين عن زمان الصحابة: إدراك حلية الفضل التي ازدانت بها نفوس الصحابة الكرام، وأن كل من جاء بعدهم سالكًا سبيل الخير والصلاح والإصلاح فإنما يقفو أثرهم ويسير في أعقابهم ويلتمس بركة مسعاهم على خطى نبينا الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين[1].

١-عرضتُ هذه المقالةَ على أحد الأساتذة الأحباء أشاوره فيها، فأشار علي أن أضيف إضافة مهمة، مفادها أن هذا العصر يكاد يفتقد القدوات الحقيقية! وصناعة القدوة فيه تحكمها السلطة والمال، وينسج خيوطها الإعلام والجهات الرأسمالية التي جعلت المادة هي الأساس والغاية. القدوة ليس كائنا أسطوريا، ولا مخلوقا ينزل من السماء أو يظهر من العدم، بل هو إنسان يترقى في مدارج العلا والفضائل فيلقي الله في قلوب الناس أن يقتدوا به، وعليه فمن اللازم أن يكثُرَ في الناسِ مَن يصلح أن يكون قدوة لهم، ببناء نفسِه علما ومعرفة وسلوكًا، واشتباكا بالواقع واستمدادًا له من الأصل الذي ينطلق منه: الوحيُ منطوقا ومفهوما، واستكمالا لسلسلةِ الهدى والنور الممتدةِ من لدن رسولِ الله وأصحابه والصالحين بعدَهم إلى الزمان القريب.

فهـرس المقالات